مدخل إلى اللسانيّات

الدكتور محمد محمد يونس علي

مدخل
إلى اللسانيّات
مدخل
إلى
اللسانيّات

مدخل
إلى اللّسانيّات

تاليف

محمد محمد يونس علي

دار الكتاب الجديد المتحدة

الطبعة الأولى

حزيران/يونيو/الصيف 2004 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 5950/ 2004
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-234-7
دار الكتب الوطنية/بنغازي ــ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار الكتاب الجديد المتحدة

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،
خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb
ص.ب. 6703/14 ـ بيروت ـ لبنان
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498،
هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571 . 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218،
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

مقدمة الكتاب

يتناول الكتاب ثلاثة موضوعات أساسية في الدراسات اللسانية الحديثة، هي: اللسانيات وفروعها المختلفة، واللغة: تعريفها، وخصائصها، ووظائفها، والمدارس اللسانية وأصولها الفلسفية. ولعله لا يخفى على القارئ أن هذا هو ما يمكن أن يقدم للقارئ المبتدئ في استكشاف معالم هذا الحقل؛ إذ من المنطقي أن يبدأ بالتعرف على هذا العلم وفروعه، ثم ينتقل إلى دراسة مفهوم اللغة التي هي موضوع هذا العلم، ثم ينطلق للتوسع في الاطلاع على مدارس العلم، والأصول الأنطولوجية، والإبستمولوجية التي وجّهت تلك المدارس، ويتخلل كل هذا وذاك تعريف للمفاهيم، وتقديم للأفكار التي لابد من معرفتها لطالب اللسانيات، كما اشتمل الكتاب أيضا على بعض الأسئلة التي تختبر فهم القارئ، ومدى استيعابه لما يقرأ.

وقد صمم ليكون منهجا ملائما لطلاب اللسانيات في الدراسات الجامعية، وما بعدها، ويرمي إلى تقديم المفاهيم اللسانية الأساسية التي يحتاج إليها المبتدئون في دراسة اللسانيات، وذوو الثقافة العامة، والمهتمون بهذا الحقل.

وقد دفعني إلى تأليف هذا الكتاب النقص الظاهر في المكتبة العربية، حيث تفتقر الجامعات العربية إلى كتاب منهجي يحتوي على مادة لسانية حديثة نسبيا تعتمد على مراجع كتبت في زمن قريب. ولعل مما يدعو إلى

الأسف الشديد أن نجد مقررات اللسانيات في كثير من الجامعات العربية ما زالت تعتمد على بعض الكتب العربية التي كتبها أصحابها في النصف الأول من القرن العشرين، مع أننا نعيش في العقد الأول من القرن الواحد العشرين، وهو ما يعني أننا نهمل الجزء الأكبر والأهم مما كتب في اللسانيات الحديثة؛ إذ كل المدارس اللسانية الحديثة تقريبا شهدت تطورا كبيرا في العقود الستة الأخيرة، كما أن الكثير من المفاهيم والأفكار التي تناقشها تلك الكتب إما أنها عدِّلت تعديلات جوهرية، كما هو الحال في الدراسات الدلالية والبراغماتية، أو تُخُلِّيَ عنها تخليا نهائيا كموضوع نشأة اللغة؛ ولذا فإن التمسك بها أو الاقتصار عليها يعد إهمالا أكاديميا معيبا، وتجاهلا لأهمية التراكم المعرفي، والتطور العلمي؛ ولاسيما إذا كان الأمر يتعلق بعلم حديث لا يكاد يتجاوز عمره قرنا من الزمن.

وعلى الرغم مما سبق ينبغي ألا نغفل عن الثناء على جهود أولئك اللسانيين العرب الرواد الذين أسهموا في نقل الأفكار اللسانية الغربية، ومناقشتها، وتطبيقها على العربية، وكان لهم الفضل في تقديم هذا العلم المثير إلى القارئ العربي.

محمد محمد يونس علي
جامعة الشارقة 2004

المحتويات

الفصل الأول

اللسانيات

1 ـ اللسانيات:

تعرف اللسانيات linguistics (ويسمى أيضا الألسنية، وعلم اللغة) بأنها "الدراسة العلمية للغة" تمييزا لها عن الجهود الفردية، والخواطر، والملاحظات التي كان يقوم بها المهتمون باللغة عبر العصور. ومن الشائع في تاريخ البحث اللغوي أن الهنود، والإغريق كانت لهم اهتمامات باللغة منذ أكثر من ألفين وخمسمائة سنة. وكثيرا ما يشير مؤرخو البحث اللغوي الغربيون إلى جهود الهنود، والإغريق، ولكنهم يغفلون جهود العرب، والمسلمين في هذا المجال.

وكما يعلم الكثير من دارسي العربية، فقد تمكن النحاة العرب من وصف العربية، ووضع قواعدها الصرفية، والنحوية، ووصفوا أصواتها، وشرحوا نظامها الصوتي، وألفوا المعاجم، وكتب اللغة المختلفة. ولعلّ أبرز الإنجازات التراثية في مجال اللسانيات ذلك الإسهام البارز للأصوليين في تحليل الخطاب، والتميز بين أنواع مختلفة من الدلالات، والتعرض للأصول

التخاطبية، والمفاهيم الخطابية الاستنتاجية، والأسس التي تستند إليها.

ويرى بعض المؤرخين أن نشأة اللسانيات بدأت في القرن الثامن عشر مع وليم جونز William Jones الذي لاحظ شبها قويا بين اللغة الإنجليزية من جهة، واللغات الآسيوية والأوروبية من جهةٍ أخرى بما في ذلك اللغة السنسكرتية Sanskrit، وهو ما دعاه إلى استنتاج وجود صلة تاريخية، وأصل مشترك بينها. وأدى ذلك إلى الاهتمام بالمنهج التأثيلي etymological الذي يتوسل به في معرفة الصلة بين اللغات، وتطوراتها التاريخية.

وفي بداية القرن العشرين أخذ البحث اللغوي طابعا علميا على يد اللغوي السويسري فرديناند دو سوسور (1857 ـ 1913) Ferdinand de Saussure الذي لقّب بأبي اللسانيات الحديثة. وعلى الرغم من أنّ اهتمامه طيلة حياته العلمية كان منصبا على اللسانيات التاريخية، فقد كان للفصل الذي خصصه للدراسات التزامنية في آخر حياته أثر جذري في اللسانيات الحديثة، وقد حال الموت دون نشر هذا العمل، فقام اثنان من زملائه، وهما تشارلز بالي Charles Bally، وألبرت شيشهيه Albert Sechehaye بجمع المحاضرات التي كان يلقيها على طلابه بالاستعانة بما دوّنه هؤلاء الطلاب، وما تركه دو سوسور من مذكرات، ونشراها في كتاب بعنوان (محاضرات في اللسانيات العامة Cours de Linguistique Generale)، وقد عدَّ هذا الكتاب ثورة في الدراسات اللغوية.

وواكب توجيه دو سوسور اهتمام اللغويين إلى أهمية المنهج التزامني في دراسة اللغة ظهور أحد الإناسيين anthropologists في أمريكا، وهو فرانز بواز Franz Boas الذي أرسى دعائم المنهج الوصفي في اللغة. لخّص بواز منهجه في مقدمة كتابه (دليل اللغات الهندية الأمريكية Handbook of American Indian Languages)، وكان له فضل على كثير من اللسانيين الأمريكيين الذين جاءوا بعده. وقد عني الأمريكيون في تلك الحقبة بدراسة لغات السكان الأصليين للقارة الأمريكية التي كانت معرضة للانقراض،

واتسم منهجهم في دراسة تلك اللغات بالنظر إليها على أنها أنظمة مستقلة عن غيرها.

ومن اللسانيين البارزين في مجال صبغ الدراسات اللغوية بطابع العلمية اللساني الأمريكي ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield (ت 1949)، الذي عُدّ أول الداعين إلى اتباع منهج موضوعي في دراسة الظواهر اللغوية، وأملى عليه التزامه بالمدرسة السلوكية أن يبعد الكثير من المناهج التي تعتمد على الوسائل الذاتية في دراسة اللغة كالاستبطان introspection، ونحوه. ودعا إلى التوسع في جمع المادة اللغوية المدروسة، وإخضاعها إلى تحليل علمي منظم.

وقد وجّه ناعوم تشومسكي Noam Chomsky، وأتباعه نقدا حادا إلى المدرسة السلوكية، ذاهبا إلى القول بأنه مهما توسعنا في جمع المادة اللغوية فليس بإمكاننا أن نعرض لكل تركيب لغوي؛ لأن المتكلمين قادرون على تأليف تركيبات لم يسبق لهم أن سمعوها من قبل. وعلينا ـ بناء على ذلك ـ أن نوجه اهتمامنا إلى مقدرة المتكلم التي تتيح له هذا الإبداع اللغوي، وليس إلى الجمل اللغوية نفسها. وبذلك بدأ الاهتمام بأسس النظام اللغوي التي تفسر قدرة المتكلم على استخدام عدد غير محدود من الجمل اللغوية اعتمادا على عدد محدود من الأسس، والقواعد اللغوية. وهكذا أعاد الاعتبار لبعض وسائل البحث التي استبعدها السلوكيّون كالاستبطان، والحدس؛ إذ بهاتين الوسيلتين يمكن للباحث، والمتكلم السليقي أن يقدرا ما حذف من الجملة المنطوقة بالفعل، وأن يكتشفا الفرق بين ما يقال بالفعل، وما يجوز قوله لغةً. وبذا يكون الحدس وسيلة ناجعة يمكن للغوي الاعتماد عليها في الحكم على المادة اللغوية، وتفسيرها. وقد أدت هذه الآراء إلى صبغ البحث اللغوي بصبغة مُغرقة في التجريد، وقدّمت هدفا جديدا للبحث اللغوي يتجاوز مجرد الوصف للمادة المدروسة إلى تفسيرها، إضافة إلى كونها لفتت الانتباه إلى أهمية المعرفة اللغوية للمتكلمين السليقيين كما هي موجودة في أذهانهم، وليس كما ينطقونها بالفعل.

ولكنّ أفكار تشومسكي انتكست بظهور ما يعرف بعلم التخاطب pragmatics الذي يترجمه بعض اللسانيين العرب بالذرائعية حينا، وبالتداولية، أو النفعية حينا آخر، وهي تراجم غير موفقة؛ لأن هذا المصطلح (وهو إغريقي الأصل) يفسره الغربيون بأنه علم الاستعمال the science of use، الذي يتفق تماما مع مباحث الاستعمال المقابلة لما يعرف بالوضع عند علماء أصول الفقه، والبلاغيين العرب القدماء. وعلى الرغم من أن الاستعمال في التراث العربي، والإسلامي لم يصبح علما لغويا مستقلا كما حدث للوضع، فإن تسمية pragmatics بعلم الاستعمال قد تكون أفضل من غيرها مما ذكر، وإن كنت أفضّل ترجمته بعلم التخاطب، وهي ترجمة تراعي "ما صدق" اللفظ لا "مفهومه" بالمعنى المنطقي للمصطلحين، حيث يقصد بمباحث الاستعمال ما يدخل في إطار المباحث التخاطبية تماما. وبغض النظر عن ترجمة اسم هذا العلم إلى العربية فإن ما ينبغي ذكره هنا يتلخص في أن المهتمين بعلم التخاطب يرون أن دراسة القولات اللغوية بمعزل عن السياقات التي تستخدم فيها أمر غير سليم على الإطلاق، فالسياق، وعناصر خارجية أخرى كالمخاطِب، والمخاطَب، وما قيل سابقا، ومعارفنا، وخبراتنا السابقة، والعناصر المكونة للمقام التخاطبي، وقدرة المتخاطبين على الاستنتاج لا يمكن إغفالها في التوصل إلى الفهم السليم لكلام المتكلم، وبلوغ تخاطب ناجح.

وأخيرا ينبغي أن نشير إلى أن طبيعة موضوع اللسانيات، والمناهج البحثية المتبعة فيه جعلته علما يجمع بين خصائص العلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية. ونظرا إلى أنه يتعامل مع اللغة البشرية بوصفها نظاما علاميا semiotic system فيمكن عده فرعا من فروع علم العلامات (semiotics)[1].

(1) Hadumod Busmann, Routledge Dictionary of Language and Linguistics, translated and edited by Gregory Trauth and Kerstin Kazzazi (London: Routledge, 1996), p. 284.

1.1 ـ فروع اللسانيات:

يدرس اللسانيون اللغة من جوانب مختلفة وفقا لأغراضهم المتنوعة، واهتماماتهم المختلفة، وقد نتج عن ذلك نشأة فروع مختلفة للسانيات منها:

1.1.1 ـ اللسانيات العامة واللسانيات الوصفية:

يفرق اللسانيون بين ما يعرف عندهم باللسانيات العامة general linguistic، واللسانيات الوصفية descriptive linguistics. ويُعنى الأول بدراسة اللغة من حيث هي بوصفها ظاهرة بشرية تميز الإنسان عن الحيوان، ونظاما يتميز عن الأنظمة الإبلاغية الأخرى، في حين يتناول الثاني وصف لغة ما كالعربية، أو غيرها. وكما هو واضح، فإن هذا التفريق يتصل اتصالا وثيقا بالتفريق بين اللغة بوصفها ظاهرة عامة، واللغة المعينة.

ويستفيد كلا الفرعين من النتائج التي يصل إليها الآخر. "فاللسانيات العامة تقدم المفاهيم، والمقولات categories التي تحلل بها اللغات المعينة، في حين تقدم اللسانيات الوصفية المادة التي تؤيد، أو تدحض القضايا، والنظريات التي تتناولها اللسانيات العامة. وعلى سبيل المثال، فقد يفترض المتخصص في اللسانيات العامة أن كل اللغات تحتوي على أسماء، وأفعال، فيقوم المتخصص في اللسانيات الوصفية بدحض ذلك بدليل عملي empirical مفاده أن ثمة لغة واحدة على الأقل لا يمكن أن يثبت وصفها التمييز بين أسماء، وأفعال. ولكن لكي يؤيد، أو يدحض اللساني الوصفي هذا الافتراض، عليه أن يتعامل مع مفهومي الاسم، والفعل اللذين زوده بهما المتخصص في اللسانيات العامة"[2]. وهكذا فإن الدراسات الوصفية للغات بعينها تؤول إلى صوغ الخصائص العامة التي تشترك فيها جميع اللغات.

ويجدر بالذكر هنا أن نشير إلى تداخل بين اهتمامات اللسانيات

(2) John Lyons, Language and Linguistics: An Introduction, (Cambridge: Cambridge University Press1981), p. 34.

الوصفية، واهتمامات فقه اللغة philology، غير أن أبرز ما يميزهما الاختلاف في المنهج حيث يتبع المهتمون بالمجال الأول منهجا وصفيا تزامنيا يدرس اللغة في مرحلة معينة دون نظر إلى تطوراتها التاريخية في حين يتناول فقهاء اللغة اللغات المدروسة من الجانبين التاريخي، والآني.

2.1.1 ـ اللسانيات التاريخية:

لقد اتسم البحث اللغوي في القرن التاسع عشر بالطابع التاريخي الذي يتناول تطور اللغة عبر العصور، وقد شاع بين اللغويين آنذاك النظر إلى اللغة على أنها كائن حي كالنباتات، والحيوانات متأثرين في ذلك بنظرية التطور في علم الأحياء التي صاغها داروين في كتابه أصل الأنواع (the Origin of Species)[3]. وكان هناك خلط منهجي في البحث اللغوي بين دراسة اللغة دراسة تاريخية، ودراستها دراسة آنية. وكان للساني فرديناند دو سوسور Ferdinand de Saussure فضل في التمييز بين المنهجين، فقد فرق بين الدراسات التعاقبية diachronic، والدراسات التزامنية syncronic، ودعا إلى عدم الخلط بين المنهجين؛ لأن تاريخ اللغة، وتطور الكلمات، والتراكيب ليس له صلة بوصفها في فترة معينة من الزمن. ومنذ ذلك الحين غلب الاهتمام بالمنهج التزامني على نظيره التعاقبي، وانحسرت العناية بالدراسات التاريخية في عدد قليل من اللسانيين.

ومن المهم هنا أن نوضح أنه في اللسانيات التاريخية historic linguistics كما في غيره يمكن للمرء أن يدرس لغة بعينها، أو يدرس اللغة من حيث هي[4].

(3) جفري سامسون، مدارس اللسانيات: التسابق والتطور، ترجمة محمد زياد كبة (الرياض: جامعة الملك سعود، 1996)، ص 4.

(4) See Lyons 1981: 35.

3.1.1 ـ اللسانيات النظرية واللسانيات التطبيقية:

ترمي اللسانيات النظرية إلى صوغ نظرية لبنية اللغة، ووظائفها بغض النظر عن التطبيقات العملية التي قد يتضمنها البحث في اللغات. أما اللسانيات التطبيقية فتهتم بتطبيق مفاهيم اللسانيات، ونتائجها على عدد من المهام العملية، ولاسيما تدريس اللغة(5). ومن الاهتمامات الأخرى التي تدخل في مجال اللسانيات التطبيقية التخطيط اللغوي **language planing**، وتعلم اللغة بالحاسوب **computer-assisted language learning** وعلاقة اللغة بالتربية، والترجمة، والترجمة الآلية **machine-aided translation**، واللسانيات الحاسوبية **computational linguistics**، والذكاء الاصطناعي **artificial intellegence**، ونحو ذلك. وكثيرا ما تنصرف أذهان الكثيرين عند إطلاق مصطلح اللسانيات التطبيقية إلى تعليم اللغات الأجنبية، وتعلمها. وهكذا فإن طرائق اكتساب اللغات، ولاسيما الأجنبية منها، من أهم أشغولات المهتمين باللسانيات التطبيقية. وخلافا لبعض مدارس اللسانيات النظرية يحرص اللسانيون التطبيقيون على الكفاية التخاطبية للمتكلمين التي تتحسن بقدر إقحام المتكلم نفسه في المواقف التخاطبية الفعلية للغة المتعلّمة.

1.3.1.1 ـ فروع اللسانيات النظرية:

تشمل اللسانيات النظرية فروعا مختلفة تتناول مستويات متباينة (وقد تكون متداخلة) من التحليل اللغوي، وأهم هذه الفروع:

1 ـ **علم الأصوات** phonetics: يدرس الأصوات الكلامية، وتصنيفاتها من النواحي الآتية:

أ ـ إحداث الصوت من حيث نطقه، والاستعدادات، والقدرات الجينية الوراثية التي تؤهّل الإنسان لنطق أصوات الكلام، ويتناول

(5) Lyons 1981: 35.

هذا الجانب علم الأصوات النطقي articulatory phonetics.

ب ـ بنية الأصوات، وهي في طريقها إلى أذن السامع، والجوانب السمعية المتعلقة بذلك، ويتناول هذا الجانب علم الأصوات السمعي acoustic phonetics.

ج ـ العمليات النفسية العصبية التي لها صلة بإدراك الأصوات، ويدرس هذا المجال علم الأصوات العصبي neurological phonetics.

2 ـ **علم الصياتة** phonology: يهتم هذا العلم بالأصوات الكلامية ذات الصلة بالدلالة، تلك المسماة بالصيتات phonemes، وتنوعاتها الصوتية allophones في لغة ما، وخصائصها، وأنظمتها، والقواعد الصياتية التي تحكمها. وبينما يتناول علم الأصوات الجوانب المادية للأصوات الممكنة في كل اللغات، يتناول علم الصياتة النظام الصوتي في لغة بعينها، وإن كانت المقارنة مع نظام صوتي في لغة أخرى ممكنة على أية حال.

3 ـ **علم التصريف** morphology: هو المجال الذي يتناول البنية القواعدية للكلمات،[6]، ونظم المصرّفات morphemes لبناء الكلمات[7]، والقواعد التي تحكم هذه المصرّفات.

4 ـ **علم النحو (أو علم التراكيب)** syntax: ويتناول بنية الجمل اللغوية، وأنماطها، والعلاقات بين الكلمات، وآثارها، والقواعد التي تحكم تلك العلاقات. ونظرا إلى كون التصريف يتناول قواعد بنية الكلمة، والنحو يتناول قواعد بنية الجملة فقد يطلق على المجال الذي يجمع بين مباحث العلمين علم القواعد grammar. ويتم أحيانا التمييز بين

(6) R.H. Robins, General Linguistics: An Introductory Survey, 2nd edn (London: Longman, 1978), p. 181.

(7) E. A. Nida, Morphology, 2nd edn (Michigan: The University of Michigan Press, 1962), p. 1.

الجوانب والوحدات القواعدية من ناحية، والجوانب والوحدات المعجمية في اللغة من ناحية أخرى. ويدرج كثير من اللسانيين المعاصرين علمي الصياتة والدلالة في علم القواعد، وهو أمر قد يؤدي إلى لبس[8].

5 ـ **علم الدلالة semantics**: وضع هذا المصطلح بريال Breal للمجال الذي يعنى بتحليل المعنى الحرفي للألفاظ اللغوية، ووصفها. ولا تقتصر اهتماماته على الجوانب المعجمية من المعنى فقط بل تشمل أيضا الجوانب القواعدية. وكذا فإن مباحثه لا تقتصر على معاني الكلمات فقط، بل تشمل أيضا معاني الجمل، وإن كان اللسانيون يميلون في فترة ما قبل الثمانينيات إلى الاقتصار على معالجة المعاني المعجمية للمفردات فقط دون أن يتطرقوا تطرقا كافيا للعناصر القواعدية، وبنى الجمل، وكان لتطور النحو التوليدي أثر بارز في توسيع مفهوم علم الدلالة البنيوي المعجمي ليشمل مباحث تتصل بعلم دلالة الجملة sentence semantics.

وهكذا فإن من الموضوعات التي يتناولها هذا العلم:

أ ـ البنية الدلالية للمفردات اللغوية.

ب ـ العلاقة الدلالية بين المفردات كالترادف، والتضاد.

ج ـ المعنى الكامل للجملة، والعلاقات القواعدية بينها.

د ـ علاقة الألفاظ اللغوية بالحقائق الخارجية التي تشير إليها، وهو ما يدرس في علم الدلالة الإشاري[9].

ومن المباحث التقليدية السائدة في الغرب ما يعرف بعلم الدلالة التاريخي الذي يدرس الكلمات المفردة، وتاريخها، وتطور معانيها عبر

(8) Lyons, 1981:100.

(9) See Bussmann, 1996:423.

العصور تحت مبحثين يطلق عليهما التأثيل etymology، والتغير الدلالي semantic change.

وقد تعددت اهتمامات الباحثين في علم الدلالة من تخصصات مختلفة إلى الحد الذي أصبح فيه الحديث عن علوم الدلالة ممكنا. وهكذا نجد اللغوي جون لاينز مثلا يميز بين علم الدلالة اللغوي، وعلم الدلالة الفلسفي، وعلم الدلالة الإناسي anthropological semantics، وعلم الدلالة النفسي، وعلم الدلالة الأدبي، وهلمّ جرّا[10]. غير أنه عندما يطلق علم الدلالة دون قيد، أو وصف، فإن الذهن ينصرف إلى علم الدلالة اللغوي.

6 ـ علم التخاطب pragmatics: يعرف هذا العلم بأنه "دراسة كيف يكون للقولات معانٍ في المقامات التخاطبية"[11].

لقد تطور هذا العلم كثيرا بفضل الجهود التي قام بها لسانيون، وفلاسفة لغة أمريكيون مثل أوستين Austin وسيرل Searle وقرايس Grice. وقد كان بعض اللسانيين حتى عهد قريب يبعدون المعنى عن موضوع دراساتهم بسبب طبيعته المعقدة التي تتداخل فيها مجالات بحثية مختلفة كالفلسفة، والمنطق، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وغيرها. وحتى أولئك الذين دعوا إلى دراسة المعنى بحجة عدم إمكان الفصل بين النحو، والمعنى كاللغوي لاكوف Lakoff لم يدخلوا المشاركين، والعناصر التخاطبية الخارجة عن البنية اللغوية كالمخاطِب، والمخاطَب، والسياق الخارجي في نطاق اهتماماتهم.

وقد سبق لموريس في تمييزه الثلاثي المشهور بين حقول علم العلامات (النحو، والدلالة، والتخاطب) أن ذكر أنّ علم النحو يدرس العلاقات بين العلامات اللغوية، و علم الدلالة يدرس علاقاتها بالأشياء، والتخاطب يدرس

(10) John Lyons, Linguistic Semantics: An Introduction (Cambridge: Cambridge University Press,1995), p. xii.

(11) Geoffrey Leech, Principles of Pragmatics (New York: Longman, 1983), p. x.

علاقة العلامات بمفسريها[12]. ويعود هذا التصنيف الثلاثي إلى بيرس Peirce، وإن كان موريس هو أول من رسمه بوضوح، وأيده كارناب Carnap[13].

ومن التفريقات المقترحة بين علم الدلالة، وعلم التخاطب أن الأول يدرس المعنى، والثاني يدرس الاستعمال[14]. وهو تفريق شبيه بتفريق علماء أصول الفقه المسلمين بين علم الوضع، والاستعمال فكل من الوضع، والدلالة يدرس المعنى بمعزل عن السياق، وكل من الاستعمال، والتخاطب يدرس اللغة في سياقاتها الفعلية. غير أن الفرق بين دراسات الغربيين، وعلماء التراث هو أن الدلالة، والتخاطب أصبحا علمين متميزين في اللسانيات الحديثة، في حين أن الوضع فقط هو الذي استقل علما من العلوم اللغوية في التراث العربي، والإسلامي، أما الاستعمال فلم يأخذ طابع العلم المستقل حتى الآن[15]، وإن كانت هناك محاولة لصوغ أصوله، ونظرياته، ومناهجه في كتاب: Medieval Islamic Pragmatics.

ويتصل الفرق بين علم الدلالة، وعلم التخاطب بالفرق بين الجملة، والقولة، وهو فرق ناشئ عن التمييز بين اللغة، والكلام، فبينما تنتمي الجملة (التي هي كيانات لغوية مجردة) إلى اللغة، تنتمي القولات (التي هي تجليات فعلية، وتحققات، وتجسدات عملية للجمل) إلى الكلام. ولعل من نافلة القول هنا أن نشير إلى أن معاني الجمل هي موضوع علم الدلالة في حين أن معاني القولات هي موضوع علم التخاطب.

ثم إن الفرق بين المعاني اللغوية، ومقاصد المتكلمين (أو مراداتهم)

---

(12) John Lyons, Semantics (Cambridge: Cambridge University Press, 1977),. 1: 115.

(13) Lyons, 1977:1:114.

(14) S. C. Levinson, Pragmatics (Cambridge: University Press, 1983), p. 5.

(15) Mohamed M. Yunis Ali, Medieval Islamic Pragmatics: Sunni Legal Theorists Models of Textual Communication (London: Curzon Press, 2000), p. 9.

وثيق الصلة بالفرق بين علم الدلالة، وعلم التخاطب. فالمعاني اللغوية (التي هي معان وضعية تفهم من مفردات اللغة، وتراكيبها) تنضوي في إطار اهتمامات علم الدلالة؛ لأن استنباطها لا يحتاج إلى عناصر خارج البنى اللغوية. أما مقاصد المتكلمين فلا يمكن التوصل إليها إلا بمعرفة السياقات التي قيل فيها الكلام، ومعرفة المخاطِب، والمخاطَب، وإعمال القدرات الاستنتاجية التي يمتلكها المخاطب عند التعامل مع الكلام.

وظل اللسانيون بفعل التطورات السابق ذكرها يرفضون الاقتصار على دراسة الجمل اللغوية على نحو تجريدي بمعزل عن السياقات التي تستخدم فيها، رافضين فكرة تشومسكي بشأن "المخاطب السليقي المثالي ideal native speaker/hearer" .

وفي المراحل الأولى من السبعينيات قصر البحث في علم التخاطب على ما يعرف بنظرية أفعال الكلام speech act theory، ثم بدأ الاهتمام يتمحور بالدرجة الأولى على الدراسات العملية empirical في تحليل المحادثة التي قام بها قرايس في سنة 1975م في ما يسميه بأصول المحادثة maxims of conversation. وبسبب الإدراك المتنامي للتفاعل المتقارب بين المعنى، والاستعمال، كان هناك ميل في المدة الأخيرة إلى معاملة المبحثين السابقين في إطار علم دلالة أوسع، ولاسيما في أعمال صورية formal مثل علم دلالة المقام situation semantics[16]، والمنطق الخطابي illocutionary logic[17].

ونتيجة للاهتمام بالجوانب التخاطبية في التعامل مع المعنى، فقد ساد المنهج البلاغي في دراسة هذا العلم[18].

(16) J. M. Gawron, and Stanley Peters, Anaphora and Quantification in Situation Semantics (Stanford: CSLI, 1990).

(17) See Bussmann, 1996:374.

(18) Leech, 1983:xi.

4.1.1 ـ اللسانيات المضيّقة واللسانيات الموسعة:

عندما يقصر اللغوي اهتماماته البحثية على بنية اللغة، وأنظمتها دون أن يتطرق إلى الأبعاد النفسية، أو الاجتماعية، أو العرقية، أو الأدبية فإنه يبحث في اللسانيات المضيَّقة microlinguistics. أما إذا اختلط البحث ببعض الأبعاد، والجوانب السابقة فسيندرج في اللسانيات الموسعة التي تشمل:

1 ـ **اللسانيات الاجتماعية** social linguistics: يعرِّف لاينز هذا العلم بأنه "دراسة اللغة من حيث علاقتها بالمجتمع"[19]، وهو فرع نشأ عن التعاون بين اللسانيات، وعلم الاجتماع الذي يبحث في المعنى الاجتماعي لنظام اللغة، واستخدامها، وزمرة الشروط المشتركة بين البنية اللغوية، والاجتماعية[20].

2 ـ **اللسانيات العرقية (أو الثقافية)** ethnolinguistics: وقد عرّفها لاينز بأنها "دراسة اللغة من حيث علاقتها بالثقافة"، ولما كانت الثقافة تقتضي مجتمعا، وكان المجتمع خاضعا للثقافة فإن مباحث اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات العرقية بمفهومهما الواسع تتداخل إلى حد كبير[21].

3 ـ **اللسانيات النفسية** psycholinguistics: يتركب المصطلح الأجنبي من كلمتين هما الكلمة الإغريقية psyche بمعنى العقل، أو الذهن، والكلمة اللاتينية lingua التي تعني اللغة، ويعرف اصطلاحا بأنه "دراسة اللغة، والعقل"[22]. وكما لا يخفى فإن العلاقة بين المعنيين اللغوي، والاصطلاحي وثيقة جدا. ومن الموضوعات التي يدرسها هذا العلم كيفية اكتساب اللغة، وإحداثها language production، وفهمها. ويسعى

(19) Lyons, 1981:267.
(20) Bussmann, 1996:439.
(21) Lyons, 1981:267.
(22) Lyons, 1981:268.

اللسانيون النفسيون إلى التعرف على طبيعة محتوى المكونات الشخصية للقدرة اللغوية البشرية، واكتشاف الطرائق التي تربط بها المعرفة اللغوية بالاستخدام الفعلي للغة. ومن القضايا التي تبحثها اللسانيات النفسية، وتشكل تحديا للمهتمين به التحديد الدقيق للجوانب الوراثية في اللغة. ومن الآراء المغالية في هذا الشأن ما ذهب إليه تشومسكي من أن كل البنى النحوية، والمفهومية التي تجسد المعرفة اللغوية للبالغين موجودة في الأذهان منذ الولادة. غير أن النظرية الأكثر اعتدالا التي يقول بها كثير من الباحثين تكتفي بالقول بأن لدينا نزعة فطرية لفهم اللغة. وهذا ما يفسر كيف أن تعامل الطفل مع التعقيدات اللغوية الفائقة أسهل من تعلمه العمليات الحسابية البسيطة كالضرب، والقسمة[23].

وقد ناقش القضايا الأساسية للسانيات النفسية في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين ستينثال **Steinthal**، ووندت **Wundt**، وبوهلر **Buhler**. ووضعت التسمية، والتصميم، والمفهوم، والبرنامج لهذا العلم في صيف 1953م في حلقة نقاش في معهد اللسانيات بجامعة إنديانا شارك فيها اللسانيون، واللسانيون النفسيون الأمريكيون. وقرروا أن البنيات اللغوية التي يكتشفها اللسانيون يمكن دراستها باستخدام مناهج علم النفس، ونظرياته[24].

4 ـ **علم الأسلوبية stylistics**: هو فرع من اللسانيات الموسعة يدرس "التنوع الأسلوبي في اللغات، والطريقة التي يستثمر بها مستخدموها هذا التنوع". وكثيرا ما يستخدم في معنى أضيق بحيث يقتصر على "دراسة لغة النصوص الأدبية"[25]. ويذكر لاينز أن هناك خلافا في السنوات الأخيرة بين الدراسات اللسانية، والأدبية ناشئا عن سوء الفهم، والأحكام المسبقة من جهة، ودعاوى قسم من اللسانيين، ونقاد الأدب

(23) See McLeish, 1993: 606-7.

(24) See Bussmann, 1996:390.

(25) Lyons, 1981: 295 - 296..

بشأن أهداف تخصص كل منهم، وإنجازاتهم. ويشير إلى أن سوء الفهم، والأحكام المسبقة تقلصت: فاللسانيون لم يعودوا معتزين بالقدر الذي كانوا عليه سابقا فيما يتصل بالمكانة العلمية لتخصصهم، كما أنهم أكثر حذرا في صوغهم لمبدأ أولوية اللغة المنطوقة (على المكتوبة)، وفي نقدهم للتحيز الأدبي، والمعياري للنحو التقليدي. كما أن بعض نقاد الأدب على الأقل يدركون أن إصرار اللغوي على فكرة أن استخدام اللغة في الأدب ليس هو الاستخدام الوحيد، أو حتى الأساسي للغة يطّرد مع رأيهم في أن الوظائف الأدبية للغة جديرة بالدراسة على وجه الخصوص. وفضلا عن ذلك، ثمة الكثير من اللسانيين الذين يعملون الآن في حقل الأسلوبية الأدبية يجمعون في اهتماماتهم بين اللغة، والأدب معا. ومن موضوعات الأسلوبية العدول (أو الانزياح) الأسلوبي stylistic incongruity (أي الخروج عن الأساليب المألوفة المتوقعة)، واللبس المقصود deliberate ambiguity، والجرأة في استخدام المجاز the bold use of metaphor، والتكرار alliteration، والجناس assonance، والعروض metre، والقافية rhythm، ونحو ذلك[26]. وهكذا تتشابه اهتمامات الأسلوبيين، واهتمامات علماء البلاغة العربية إلى حد ما، وإن كانت المناهج المتبعة مختلفة.

وبينما يهتم النحو بالبنية القواعدية للجملة تهتم الأسلوبية بدراسة النص، والاستخدامات الجمالية للغة، والاستجابات الجمالية للمتلقي. ويبدو أن الأسلوبيين بدؤوا يميلون الآن إلى دراسة النصوص غير الأدبية كصوغ الدليل الإرشادي، وكتابة الرسائل، إضافة إلى اهتماماتهم التقليدية بالرواية، والشعر. وتمتد مجالات البحث في الأساليب لتشمل ـ علاوة على اللغة المكتوبة ـ الإعلانات المسموعة، والنصوص المنطوقة كإعلانات الإذاعة المسموعة، والخطابات، وحتى المحادثة العادية.

---

(26) (Lyons, 1981:295-7.

وعلى وجه العموم، ثمة اعتقاد شائع لدى الأسلوبيين أن الاستجابة الجمالية تحدث عندما تستخدم البنى اللغوية على نحو بديع. فمتعة المفاجأة الناشئة عن النظم الفريد، وغير المتوقع يؤدي إلى العناية باللغة في حد ذاتها بدلا من الرسالة التي تعبر عنها تلك اللغة[27].

(27) See McLeish, 1993: 718.

الفصل الثاني

اللغـــة

2 ـ اللغة

نظرا إلى أن اللغة هي موضوع اللسانيات، وأن كيفية تصورها يؤثر في تشكيل الاتجاهات والمدارس اللسانية، كان من المهم أن نعرفها ونقف على بنيتها، وخصائصها، ووظائفها.

1.2 ـ تعريف اللغة:

تعد اللغة الطبيعية نظاما علاميا مميزا من بين الأنظمة العلامية الأخرى. فهي تختلف عن لغات الحيوانات، ولغات الإشارة الجسمية، ولغة الصم، والبكم، ولغة المرور. وإن كان هناك بعض الخصائص التي تجمع بين اللغة الطبيعية، والأنظمة العلامية الأخرى المذكورة تميزها عن الدلائل الطبيعية (كدلالة الغدران على نزول المطر، ودلالة الرماد على نار سابقة). وأهم هذه الخصائص على الإطلاق قصد الإبلاغ. فالغدران، والرماد لا يريدان أن ينقلا أية رسالة إلينا، وإن استنتجنا عند رؤيتهما نزول المطر، أو وجود النار. أما الأنظمة العلامية فتستخدم لغرض الإبلاغ أي نقل المعلومات، وتستلزم وجود

مخاطِب، ومخاطَب، ونظام رمزي يحتاج إلى تفكيك، وتركيب، وسياق تستعمل فيه. وسيتضح لنا عند الحديث عن خصائص اللغة كيف تختلف اللغة الطبيعية عن لغات الحيوانات، وغيرها من الأنظمة العلامية الأخرى.

وينبغي أن أشير هنا ـ قبل الخوض في تعريف اللغة ـ إلى تفريق دو سوسور بين اللغة الملكة langage، واللغة المعينة langue. فاللغة الملكة هي مقدرة فطرية بطبيعتها يزود بها كل مولود بشري، وهي من أهم السمات الفطرية التي تميز الإنسان عن الحيوان. أما اللغة المعينة كالعربية، أو الإنجليزية، أو الصينية فهي نظام مكتسب متجانس "إنها نظام من العلامات قوامه اتحاد المعنى بالمبنى"[28].

والجديد الذي أضافه دو سوسور في تعريف اللغة المعينة (وهي المقصودة عادة عند إطلاق مصطلح اللغة) هو عنصر النظام كما سنشير.

وقد كنت عرّفت اللغة منذ حوالي عقد ونصف بأنها "نظام من العلامات المتواضع عليها اعتباطا التي تتسم بقبولها للتجزئة، ويتخذها الفرد عادة وسيلة للتعبير عن أغراضه، ولتحقيق الاتصال بالآخرين، وذلك (بوساطة) الكلام، والكتابة"[29]. وقد صيغ هذا التعريف بعد دراسة عدد من تعريفات اللغويين القدامى، والمحدثين. وما زلت حتى الآن اعتقد بأنه تعريف جامع لأهم خصائص اللغة، ووظائفها، إضافة إلى كونه يشير بدقة إلى حقيقتها، وطبيعتها.

2.2 ـ خصائص اللغة:

سأشرح فيما سيأتي المقصود بكل خصيصة من خصائص اللغة الواردة في التعريف:

(28) F.de Saussure, Cours de linguistic général (Paris: Payot, 1968), p. 32.

(29) محمد محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية: دراسة حول المعنى ومعنى المعنى (طرابلس: منشورات جامعة الفاتح، 1993)، ص 24.

1.2.2 ـ كونها علامات:

عرف دو سوسور العلامة sign بأنها "المجموع الناجم عن ارتباط الدال بالمدلول". ويقصد بذلك أن العلامة ليست لفظا مجردا عن معنى، بل هي لفظ يفهم منه معنى عند إطلاقه، ولا يمكن الفصل بين الدال، والمدلول.

وقد تطور مفهوم العلامة ليشمل ـ علاوة على العلامة المعجمية ـ العلامة القواعدية ـ ، وعلى سبيل المثال، فإن كلمة ساهر تتكون من علامتين هما: (أ) (س هـ ر)، و(ب) صيغة فاعل، وبينما تعد العلامة الأولى معجمية لكونها تدل على معنى معجمي، وهو المكوث يقظا بعد موعد النوم، توصف الثانية بأنها علامة قواعدية.

والفرق بين العلامات القواعدية، والمعجمية أن الأولى يمكن حصرها بعد الاستقراء؛ أي إنها محدودة العدد، وينوب بعضها عن بعض للدلالة على معان صرفية، أو نحوية معينة، وذلك مثل أداة التعريف، وتاء التأنيث، وصيغة فاعل، أما العلامات المعجمية فهي غير محدودة العدد؛ لدخول علامات جديدة في كل وقت، ولأنها تشير إلى أشياء خارج اللغة، وهذه الأشياء غير متناهية، وعادة ما تدون المعاجم اللغوية العلامات المعجمية دون القواعدية، إذ يمكن العثور في المعجم على معنى "أسد" دون معنى صيغة "مفعول" مثلا.

ويعد المصرّف (سواء أكان قواعديا، أو معجميا) أصغر علامة لغوية؛ لأنه يدل على معنى، ولا يمكن تقسيمه إلى عناصر أصغر ذات معنى.

ومثلما تطلق العلامة على المفردات تطلق أيضا على التراكيب، فالمركب الإضافي نحو كتاب سعيد، والمركب الوصفي نحو سيّارة حمراء، والمركب البدلي نحو الكتاب نفسه، والمركب الإسنادي نحو الجو لطيف، وقام خالد، وغير ذلك، من التراكيب التي تدخل في حكم العلامة التركيبية. وأكبر ما تكون عليه العلامة في التحليل القواعدي هو الجملة، أما المهتمون

بدراسة النص كعلماء التخاطب، ومحللي الخطاب، والأسلوبيين فيعدون النص هو الموضوع الذي يستحق التحليل، وما الجمل إلا مكوّنات له.

2.2.2 ـ الاعتباطية:

إذا نظرنا في أصوات كلمة ضرب مثلا في اللغة العربية، وتأملنا في سبب اختيار العرب لهذه الأصوات بالذات للتعبير عن معنى الضرب، فلن نجد علة منطقية تفسر سبب الاختيار. بل إنهم كان بإمكانهم أن يستعملوا "ربض"، أو أي لفظ آخر للدلالة على هذا المعنى. يقول عبد القاهر الجرجاني: "فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب)، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد"[30]. ولو كان في اللفظ ما يدل على معناه، أو في المعنى ما يقتضي أن يعبر عنه بلفظ معين، لما اختلفت اللغات. وهكذا يمكن أن نستنتج أن اختيار الدال لمدلول معين إنما هو عمل اعتباطي عشوائي لا يخضع لمنطق، أو تعليل. وفي هذا تخالف اللغة الطبيعية الرموز المعبرة كإشارة الصليب التي تدل على صلب المسيح عند النصارى.

3.2.2 ـ كونها نظاما:

كان اللغويون قبل دو سوسور ينظرون إلى اللغة على أنها مجموعة من الأصوات، تلك العناصر المادية التي يمكن سماعها، ونطقها، وتتسم بخصائص فيزيائية مميزة؛ أي إنها جواهر، وليست أعراضا إذا ما استخدمنا مصطلحات المناطقة. وبناء على ذلك، فإن تعريف اللغة على هذا النحو شبيه بمن يعرّف البيت بأنه أكوام من الحجر، والإسمنت، والطين، والخشب، والزجاج. وقد اعترض ابن سينا على تعريف البيت بهذه الطريقة، أو نحوها

(30) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الداية، ومحمد فايز الداية (دمشق: دار قتيبة، 1983)، ص 42.

مشيرا إلى ضرورة مراعاة الهيئة، والرصف، والترتيب[31]. وهو الاعتراض نفسه الذي وجّهه دو سوسور على من يعرِّف اللغة بأنها أصوات دون ذكر خصيصة النظام، يقول دو سوسور: "إن أخطاء مصطلحاتنا، وكل طرائقنا في تمييز أمور اللغة المعينة إنما تصدر عن افتراض مقصود مضمونه أن هناك جوهرا في الظاهرة اللغوية"[32]. فاللغة العربية مثلا ليست هي الأربعة وثلاثين صوتا التي تتألف منها، بل الطرائق المختلفة التي ترصف بها تلك الأصوات لتكوين كلمات، وجمل مختلفة وفقا لأغراض المتكلم التخاطبية. فواضع اللغة استثمر عددا من الاحتمالات الممكنة لصوغ عدد كبير جدا من الكلمات بتقليب الأصوات على أوجه مختلفة، وتأليفها على أشكال متباينة لوضع كلمات جديدة. ومستخدم اللغة يركب المصرّفات، والكلمات الموضوعة على أوجه مختلفة تناسب المعنى المراد نقله لمخاطبه.

ويتوقف نظم التراكيب اللغوية التي يستخدمها المتكلم على نوعين من العلاقات:

أ ـ العلاقات الاستبدالية:

فالمخاطِب عندما يقول: "استقبلتُ في بيتي خمسة أصدقاء"، فإنه قد اختار كلمة استقبل من زمرة من الخيارات الممكنة مثل أكرم، وضرب، وقتل، ونحوها، واختار التاء المضمومة الدالة على المتكلم بدلا من التاء المفتوحة، والمكسورة، والضمائر (نا)، و(تما)، و(تم)، و(ا)، ونحوها، وكذا فقد استبعد نحو (في مكتبي)، و(في مجلسي)، ونحوهما، واستبعد (ثلاثة)، و(أربعة)، و(ستة)، ونحوها، واستبعد (زملاء)، و(جيران)، و(أقارب)، ونحوها. وتدخل كل كلمة من الكلمات المختارة في علاقة استبدالية مع غيرها من الكلمات الممكنة التي استبعدها.

(31) ابن سينا، منطق المشرقيين (بيروت: دار الحداثة، 1982) ص 103.

(32) Saussure, 1968: 169.

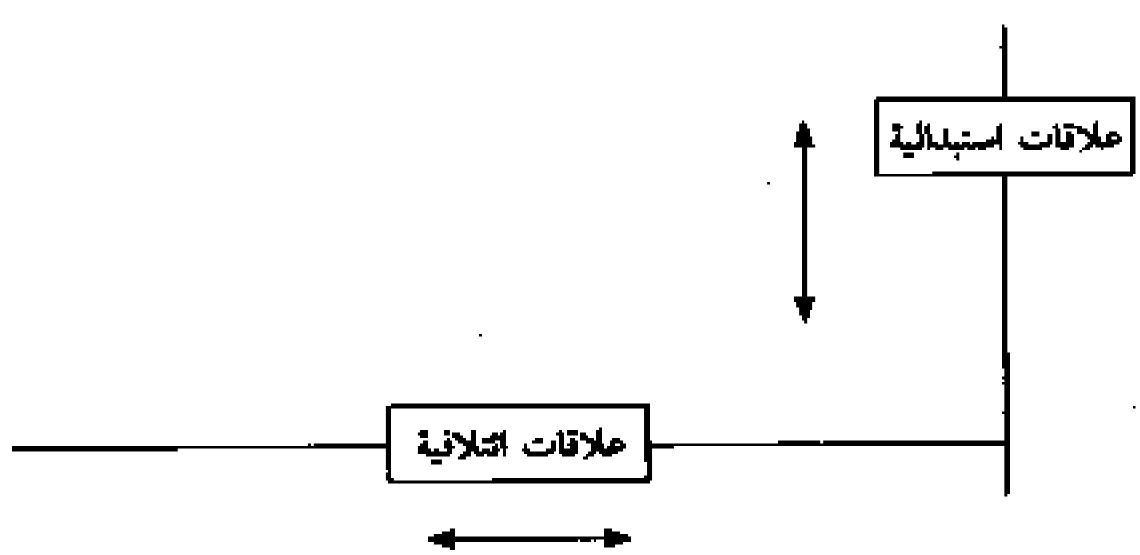
وقد يكون استخدام الكلمة متوقفا على خيار المتكلم، أو على متطلبات السياق، فعندما يقول المتكلم: "حضرَ سبعةُ طلابٍ" فإن استخدام حضر بدلا من غاب، أو نجح مثلا، واستخدام سبعة بدلا من ثمانية، أو تسعة، واستخدام طلاب بدلا من مدرسين، أو رجال، إنما يعود إلى رغبة المتكلم في قول ما قال؛ لأن ما اختاره من كلمات يعبر عن غرضه الإبلاغي. والعلاقة بين كلمة حضر، وكل كلمة من الكلمات التي كان من الممكن أن تحل محلها هي علاقة تغاير؛ لأن ذكر أي كلمة من الكلمات المطروحة بدلا من الكلمة المذكورة يترتب عليه التعبير عن معنى مغاير.

وعلاقة التغاير هي إحدى علاقتين تندرجان تحت علاقة الاستبدال، والعلاقة الأخرى هي علاقة التشابه التي يمكن أن نوضحها بالرجوع إلى المثال الأخير حيث كان على المتكلم أن يقول حضر، وليس له أن يقول حضرا، أو حضروا، أو حضرت؛ لأن قواعد العربية تفرض هذا الشكل دون غيره في هذا السياق. وكذا فليس بإمكانه أن يقول سبعٌ، أو سبعا، أو سبعٍ، أو سبعةٍ، أو سبعةٌ، أو سبعةِ، أو سبعةً، أو نحو ذلك؛ لأن السياق لا يسمح بذلك، وينطبق هذا أيضا على كلمة طلاب؛ فليس بإمكان المتكلم أن يقول طلابًا، أو طلابٌ، أو طالبٍ، أو نحو ذلك. وإنما سميت هذه العلاقة بعلاقة التشابه؛ لأن الكلمة المذكورة تشبه الكلمات المحذوفة في المعنى، وإن اختلفت معها في الشكل. ونظرا إلى أن شكل الكلمة المسموح بوقوعه يحكمه السياق فلا يجوز لغة أن تحل كلمة بدلا من كلمة أخرى إذا كانت العلاقة بين الكلمتين علاقة تشابه.

ب ـ العلاقات الائتلافية:

إن المعنى الذي يعبر عنه المتكلم محكوم بنوع آخر من العلاقات يسمى العلاقات الائتلافية، ويسميها دو سوسور بالعلاقات الترابطية associative. فعندما يريد المتكلم أن يشير إلى تنفيذ حكم الإعدام في شخص

ما يقطع رقبته بإمكانه أن يقول: "ضُرب عنقه" مثلا، ولكن ليس له أن يقول: "ضُرب جيده" مثلا على الرغم من الترادف الإدراكي بين الكلمتين عنق، وجيد؛ والسبب هو أن الائتلاف بين الجيد، والضرب غير مألوف في العربية عادة. وشبيه بهذا العلاقة النحوية بين الكلمات، ففي العربية ـ كما هو معلوم ـ تتأثر الكلمات المتوالية بعضها ببعض، وكما رأينا في الأمثلة السابقة فإن كلمة سبعة في "حضرَ سبعةُ طلابٍ" لا يجوز أن يستبدل بها سبعٌ، أو سبعةٍ، أو سبعةً، أو سبعةٍ، أو سبعةً، أو سبعٌ، أو سبعا، أو سبع، أو نحو ذلك؛ لأن هذا الائتلاف لا يسمح بغير صيغة (سبعةُ). وربما يسألُ سائل هنا كيف يصلح المثال نفسه لتوضيح نوعين مختلفين من العلاقة هما العلاقات الاستبدالية، والعلاقات الائتلافية؟. والجواب هو أن الفرق يتصل بوجهة النظر المراعاة، فإذا نظرنا في المثال نفسه إلى العلاقة بين (سبعةُ)، وغيرها من الصيغ المطروحة التي لا يمكن أن تقع موقعها لأسباب سياقية مثل سبعٌ، أو سبعةٍ، أو سبعةً، ونحوها، أو إلى علاقتها بالكلمات التي يمكن أن تقع موقعها مثل ستةُ، أو ثمانيةُ فإننا سنتحدث حينئذ عن علاقات استبدالية. أما إذا نظرنا إلى علاقة (سبعةُ) بما قبلها، أو بعدها من الكلمات فإننا نتحدث حينئذ عن العلاقات الائتلافية. وهكذا فإن العلاقات الاستبدالية علاقات عمودية في حين أن العلاقات الائتلافية علاقات أفقية (انظر الشكل الآتي).



ويمكن التمثيل للعلاقتين الاستبدالية، والائتلافية من الناحية الصوتية، حيث تدخل الصيتة phoneme (ن) في مندوحة في علاقة استبدالية مع (م) مثلا، وهي من علاقات التغاير؛ لأن تغيير الصيتات هنا يترتب عليه تغيير في معنى الكلمة حيث تصبح ممدوحة بدلا من مندوحة. أما إذا حاولنا أن نضع نونا أخرى، ولتكن تلك النون الموجودة في منحوسة، فإن هذا أمر غير ممكن عادة؛ لأن السياق الصوتي لا يسمح بذلك؛ فالنون في مندوحة مخفاة، وسياقها في منحوسة يقتضي إظهارها.

4.2.2 ـ القابلية للتجزئة:

لما كانت العلامات اللغوية وحدات ائتلافية منظمة، فذلك يعني أن المتكلمين بإمكانهم أن يجزئوا تلك العلامات، ويعيدوا تركيبها للتعبير عن معنى مغاير مثلما يفعل الطفل بألعاب الفك، والتركيب حين يرسم أشكالا مختلفة بإعادة الفك، والتركيب. وتسمى هذه الخصيصة اللغوية التجزئة المزدوجة double segmentation، ويشير اللسانيون عادة إلى نوعين من التجزئة: تجزئة التراكيب إلى مصرّفات morphemes، وهي المسماة بالتجزئة الأولى (first segmentation (or first articulation، وتجزئة المصرفات إلى أصوات وهي ما يسمى بالتجزئة الثانية second segmentation. فمثال الأولى تجزئة جملة "الولد يبكي" إلى (ال) الذي هو مصرف قواعدي، و(ولد)، وهو مصرّف معجمي، والمصرف المعجمي المقيّد (ب ك ي)، وصيغة (يفعل)، وهو مصرّف قواعدي مقيد. ومثال الثانية تجزئة كلمة ولد إلى (و+فتحة+ل+فتحة+د).

وكما لاحظنا فإن الكلمة ليست مهمة في التجزئة كما يقول المهتمون باللسانيات العامة، غير أنه في وصفي للعربية من الناحية الدلالية كنت أشرت في دراسة سابقة[33] إلى أن هذا لا ينطبق على العربية. وذلك لأن الكلمة في

(33) يونس علي، 1993: 46 ـ 47.

العربية هي موضوع الإعراب، ولا يمكن للمصرّف أن يحل محلها في التحليل النحوي.

وقد عرّفت الكلمة في العربية بأنها "الوحدة اللغوية الصغرى القابلة للتصنيف الإعرابي، المكونة من مصرّف قواعدي مستقل إعرابيا، أو من مصرف معجمي واحد، مفرد، أو مقترن بمصرف قواعدي، أو أكثر"[34]. فمثال الكلمة المكونة من مصرّف قواعدي مستقل إنْ، وعلى، وواو القسم، والفاء، وباء الجر، وكاف التشبيه، ونحوها. ومثال الكلمة المكونة من مصرف معجمي واحد عيسى، وكمثرى، وهدى، ومثال الكلمة المكونة من مصرف معجمي واحد مقترن بمصرف قواعدي، أو أكثر كلمة فاتح المكونة من (ف ت ح)، وصيغة فاعل، وشاربة المكونة من (ش ر ب)، وصيغة فاعل، وتاء التأنيث.

والفرق بين الكلمة، والمصرّف هنا هو أن الكلمة هي موضوع الإعراب فهي التي تصنف بأنها فعل ماض، أو فاعل، أو مفعول به، أو مضاف إليه، أو حرف عطف، أو جرّ إلخ. أما المصرف فقد يدل على معنى معجمي، أو على معنى قواعدي، ولكنه ليس موضوعا للإعراب إلا إذا كانت الكلمة بسيطة البنية، وليست مركبة؛ أي إنها مؤلفة من مصرّف واحد إما قواعدي نحو عن، أو معجمي نحو صدى، فإنها في هذه الحال قابلة للإعراب، ولكن بوصفها كلمة، وليس مصرفا.

5.2.2 ـ الإنتاجية:

من أهم الخصائص التي تميز اللغة البشرية عن لغات الحيوانات ما يعرف بالإنتاجية productivity، التي تعني أن المتكلمين يستطيعون أن ينطقوا بتركيبات لم يسبق لهم أن سمعوها من قبل، ويعود هذا جزئياً إلى الوضع

(34) يونس علي، 1993: 46.

السابق للغة، وجزئياً إلى استعمال المتكلم؛ أي إنّ ما تعارف عليه أهل اللغة يقتصر فقط على وضع المفردات، والأنماط، أو المناويل التركيبية دون القولات التي يستخدمها المتكلمون. يقول ابن مالك: "إنّ الدال بالوضع لابد من إحصائه، ومنع الاستئناف فيه، كما كان ذلك في المفردات، والمركبات القائمة مقامها، فلو كان الكلام [يقصد القولة utterance] دالاً بالوضع وجب ذلك فيه، ولم يكن أن نتكلم بكلام لم نسبق إليه، كما لم نستعمل في المفردات إلا ما سبق استعماله، وفي ذلك برهان على أن الكلام ليس دالا بالوضع"[35]. وما يقصده ابن مالك هنا أن المتكلمين غير مقيدين في كلامهم بما قيل سابقا؛ أي ليس عليهم أن يحفظوا كل الجمل التي قيلت قبلهم كي يصدق عليهم أنهم يتكلمون العربية، بل عليهم أن يتقيدوا بما وضعته العرب في المفردات، والمركبات الجزئية فقط. أما الجمل فبإمكانهم أن يقولوا منها ما يشاءون. وهو ما يعرف في اللسانيات بالإنتاجية productivity أي إمكان إحداث (أو فهم) جمل جديدة لم تنطق من قبل.

وتحظى خصيصة الإنتاجية باهتمام النحاة التحويليين بزعامة تشومسكي، بل إنها أهم أسس نظريتهم على الإطلاق، وهي السمة الوحيدة التي يمكن استنتاجها من تعريف تشومسكي للغة، حيث يرى أن اللغة هي مجموعة من الجمل غير محدودة العدد، وكل جملة منها محدودة الطول مصوغة من مجموعة من العناصر المحدودة[36]. وهكذا فإن اهتمام التوليديين، والتحويليين يتمحور حول كيف يؤلف متكلمو اللغة السليقيون، ويفهمون عددا غير متناه من الجمل الممكنة المختلفة اعتمادا على عدد محدود من القواعد، والأسس النحوية.

(35) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى، وعلي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار الجيل، (د ـ ت))، 1: 43.

(36) N Chomsky, Syntactic Structures (The Hague: Mouton, 1957), p. 13.

6.2.2 ـ النقل الثقافي:

تتسم لغات الحيوانات بكونها ردود فعل غريزية موروثة، وليست مكتسبة، وهذا يعني أن القطط مثلا في كل مكان في العالم تستعمل الألفاظ نفسها، وفي هذا تختلف عن اللغة البشرية اختلافا بيّنا، إذ تتنوع اللغات بتنوع المجتمعات، والثقافات، ويكتسب الطفل لغته من المحيط الذي يعيش فيه بغض النظر عن عرقه، أو الجينات التي يرثها من والديه، فالمولود الإنجليزي الذي يعيش في بيئة لغوية فرنسية سيتحدث الفرنسية، وليس الإنجليزية. ولا شك أننا نقصد هنا اللغة المعينة، وليس اللغة الملكة؛ لأن اللغة الملكة هي مقدرة موروثة كما سبقت الإشارة.

فاللغة المعينة إذن تنتقل من جيل إلى آخر بالتعلم، وليس بالوراثة، وهذا ما يسمى بالنقل الثقافي cultural transmission، وهو عنصر مهم في اكتساب اللغة[37].

---

(37) G Yule, The Study of Language (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), p. 24.

تمرينات

اختر أفضل إجابة لكل سؤال مما يأتي:

أ ـ العلاقة بين الدال والمدلول في اللغة علاقة:

1 ـ منطقية

2 ـ اعتباطية

3 ـ دقيقة

4 ـ ذاتية

5 ـ تباين

ب ـ العلامة اللغوية هي:

1 ـ اللفظ

2 ـ المعنى

3 ـ المجموع الناجم عن ارتباط الدال بالمدلول

4 ـ الصوت

5 ـ الحرف

ج ـ لا يصح أن تحل "ثلاث" محل ثلاثة في نحو حضر ثلاثة رجال لأن العلاقة بينهما علاقة:

1 ـ ذاتية

2 ـ تغاير

3 ـ تشابه

4 ـ تضاد

5 ـ منطقية

د ـ من الخصائص التي تميز اللغة البشرية الطبيعية عن الأنظمة العلامية الأخرى:

1 ـ قصد الإبلاغ

2 ـ الإنتاجية

3 ـ الاعتباطية

4 ـ (1) + (2)

5 ـ (2) + (3)

هـ ـ في قولك: "أكل الذئب واحدة من النعجات القاصية" ثمة عنصر لغوي واحد من الخيارات الآتية لا ينطبق عليه مفهوم العلامة، ألا وهو:

1 ـ من

2 ـ ال

3 ـ واح

4 ـ أكل

5 ـ التاء في واحدة

و ـ يجوز أن تحل أربعة محل ثلاثة في نحو حضر ثلاثة رجال لأن العلاقة بينهما علاقة:

1 ـ منطقية

2 ـ تغاير

3 ـ تشابه

4 ـ ائتلافية

5 ـ ترابط

ز ـ واحد فقط من العناصر اللغوية المذكورة في الخيارات الآتية ينطبق عليه تعريف الكلمة:

1 ـ ال في الرجل

2 ـ رجل في الرجل

3 ـ الباء في به

4 ـ الواو والنون في "مسلمون"

5 ـ صيغة فاعل في شاهِد

ح ـ يمكن التفريق في العربية بين الكلمة والمصرّف على أساس

1 ـ قبول العلامة الإعرابية

2 ـ الاشتقاق

3 ـ الصيغة

4 ـ الدلالة

5 ـ الغرض البلاغي

1. أكمل ما يأتي:

أ) من العوامل التي أدت إلى ظهور علم اللغة الوصفي والابتعاد عن المنهج التاريخي في دراسة اللغة:

1 ـ

2 ـ

3 ـ

ب) اللغة: .... من العلامات .... اعتباطا التي تتسم بقبولها ...... ويتخذها الفرد عادة وسيلة للتعبير عن .... ، ولتحقيق الاتصال ...... وذلك عن طريق ...... والكتابة.

ضع إشارة صح أو خطأ أمام كل عبارة مما يأتي:

1 - اللفظ المهمل ليس علامة لغوية.

2 - لقد كان الاستعمال في التراث العربي والإسلامي علما مستقلا.

3 - يتناول علم اللغة الوصفي لغة بعينها في حين يتناول علم اللغة المعياري اللغة من حيث هي.

4 - من الاعتراضات التي يمكن أن يقدمها علم اللغة الوصفي على المفاهيم والأفكار التي يقول بها علم اللغة العام ضرورة التفريق في العربية بين الكلمات والمصرّفات.

5 - يتّبع المهتمون بفقه اللغة منهجا تزامنيا خالصا في دراسة اللغة.

6 - في علم اللغة التاريخي كما في غيره يمكن للمرء أن يدرس لغة بعينها أو يدرس اللغة من حيث هي.

7 - من الشائع في الدراسات اللسانية إطلاق علم اللغة التطبيقي على تعليم اللغات الأجنبية.

8 - من الأفكار اللغوية التي ارتبطت باسم تشومسكي التفريق بين اللغة الملكة واللغة المعيّنة.

9 - العلامات القواعدية محدودة العدد في حين أن العلامات المعجمية لا حدود لها.

2 . اختر اثنين من تعريفات اللغة الآتية، ثم انقدهما نقدا علميا مبينا مزاياهما وعيوبهما:

1. يقول ابن جني: "اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".
2. يقول هنري سويت: "اللغة هي تعبير عن أفكار بوساطة أصوات كلامية مؤلفة في كلمات مؤلفة في جمل"
3. يقول برنارد بلوك، وجورج ترادجر: "اللغة نظام من الرموز اللفظية الاعتباطية التي يتم بها التعاون بين أفراد الجماعة الاجتماعية".

الفصل الثالث

الاتجاهات اللسانية

3 ـ الاتجاهات اللسانية:

سوف نبدأ الحديث عن الاتجاهات اللسانية بأصولها الفلسفية، ولاسيما أصولها الأنطولوجية، والإبستمولوجية، ثم نلقي الضوء على مدارسها.

1.3 ـ الأصول الأنطولوجية والإبستمولوجية الموجّهة لاتجاهات المدارس اللسانية في القرن العشرين(*)

تتحكم الأصول الأنطولوجية ontological principles، والإبستمولوجية epistemological[38] إلى حد كبير في تشكيل الاتجاهات اللسانية، وكثيرا ما يعود الاختلاف المنهجي بين اللسانيين إلى موقفهم من هذه الأصول. وليس

(*) هذا مقال نشر في عالم الفكر، مج 32، ع1، 2003.

(38) يعود مصطلح ontology إلى اللغة الإغريقية، ويقصد به "نظرية الوجود من حيث هو"، ويعرّفه أرسطو بأنه "علم ماهيّة الأشياء"، أما الإبستمولوجي epistemology فهو مصطلح إغريقي أيضا، ويقصد به "فرع من الفلسفة يعنى بأصل المعرفة، وبنيتها، ومناهجها، وصلاحيتها". See Dagobert D. Runes, Dictionary of Philosophy, 16th edn. (New York: Philosophical Library, n-d).

شرطا أن تكون هذه الأصول سابقة زمنيا للاتجاه المدرسي، بل قد تكون تبلورت، واتضحت معالمها في مرحلة متأخرة، ولكن تسويغ جعلها من الأصول كونها تفسر بعض اتجاهاتها، وخصائصها.

ولقد آثرنا أن نبدأ بالحديث عن أهم الأصول الأنطولوجية، والإبستمولوجية، والفلسفية التي وجّهت اتجاهات المدارس اللسانية معزولة عن السياقات التاريخية، والجغرافية التي وقعت فيها، ولما كان الأمر يقتضي ربط تلك الأصول بالمدارس اللسانية، وتوضيح آثار تلك الأصول كان لا بد من تقديم نبذة موجزة عن أهم المدارس التي ظهرت في القرن العشرين لكي نوضح من خلالها أهم أفكارها، ونربط تلك الأفكار إما على نحو مباشر، أو غير مباشر بالأصول التي تحدثنا عنها. وبذلك نضمن أن تتسنى للقارئ الفرصة للاطلاع على أصول تلك المدارس، وأهم فروعها، والصلة بين تلك الأصول، والفروع في آن واحد، كما نضمن الحديث عن أصول فلسفية أخرى يحسن أن تعرض في إطارها التاريخي.

وقد دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع النقص الظاهر في تناول هذا النوع من الموضوعات التي لا تقف عند الجزئيات، والآراء، والأفكار، بل تمتد إلى التعمق في الأصول المفسرة لتلك الفروع. ولا يخفى على الباحثين أهمية البحث في أصول العلوم؛ إذ بدونها لا يمكننا فهم الإطار النظري الذي يلم شملها، ويحقق وحدتها، ويسوّغ منهجيتها، ويعين على فهم فروعها، ويربط بين جزئياتها.

1.1.3 ـ أهم الأصول:

لقد حاولت في هذه الدراسة أن استقرئ أهم تلك الأصول فاستنتجت أنها تتعلق بآراء تلك المدارس في مفهوم العلمية في اللسانيات، وتحديد قدر الكفاية فيه، وموقفهم من الحد الذي يمكن أن يمتد إليه مستوى التجريد في دراسة الظواهر اللغوية، ومواقفهم الأنطولوجية من الكليات، والجزئيات،

ووجهات نظرهم في مفهومي اللغة، والكلام، وتحديد ما الذي ينبغي للساني أن يدرسه منها، واختلافهم في طبيعة اللغة، وفي تحديد أهم الجوانب اللغوية التي ينبغي للساني توجيه اهتمامه إليها؛ فضلا عن أصول أخرى آثرنا الحديث عنها عند الكلام عن المدارس نفسها.

1.1.1.3 ـ مفهوم العلمية في اللسانيات:

يتفق اللسانيّون في القرن العشرين على أن اللسانيات هي الدراسة العلمية للغة، ولكنهم يختلفون فيما يمكن أن يوصف بأنه علمي، أو غير علمي، الأمر الذي ترتب عليه تفاوت فيما بينهم في تحديد نطاق العلم، وحدوده. لقد ساد الاعتقاد في بداية القرن التاسع عشر بأن توجيه البحث اللغوي نحو البعد التاريخي أكسب الدراسات اللغوية طابع العلم، وقد ألمح إلى ذلك اللغوي الدانمركي أوتو جسبرسن Otto Jespersen في قوله: "إن الصفة المميزة لعلم اللغة science of language كما يفهم الآن هي السمة التاريخيّة"[39].

ومن العوامل التي كان لها أثر فعّال في تحديد مفهوم العلم في البحث اللساني ثلاثة تيارات مهمة هي التجريبية empiricism، والوضعية positivism، والعقلانية rationalism. وقد بلغت أهمية هذه النزعات الفلسفية شأوا جعلت جون لاينز يقول إنه بدون معرفة التجريبية، والإيجابية لا يمكن أن يتوقع من طلاب اللسانيات "أن يفهموا بعض القضايا النظرية، والمنهجية التي ميّزت بعض المدارس اللسانية من أخرى في الوقت الحاضر"[40]. فالتجريبية تشير إلى وجهة النظر القائلة بأن كل المعرفة تأتي من الخبرة experience؛ ولاسيما من الإدراك الحسي perception، والمادة المأخوذة من الحس sense-data. وقد

---

(39) O. Jespersen, Language. Its Nature, Development, and Origin.(London: Allen & Unwin, 1922) p.7.

(40) Lyons, 1981, p. 40.

تبنت هذه النظرة المدرسة الوصفية الأمريكية التي كان يتزعمها اللساني الأمريكي بلومفيلد Bloomfield الذي تأثر إلى حد كبير بعالم النفس واطسن Watson مؤسس المدرسة السلوكية في علم النفس. نشر واطسن مؤلفه السلوكية Behaviorism في سنة 1924، ولكنه مهّد له ببعض المبادئ التي وردت في بعض مقالاته، ومحاضراته[41]. عُرِف السلوكيون بصرامتهم في الدعوة إلى المحافظة على الموضوعية، وانتقاد العقلانيين في الاعتماد على الحدس، والاستبطان في الحكم على المادة اللغوية، ورفضهم إقحام الأنظمة العميقة المفسرة للسلوك الخارجي. وقد وصف تشومسكي Chomsky (وهو اللساني، والفيلسوف الذي أعاد الاعتبار إلى الفلسفة العقلانية) هذا الرفض بأنه "موضوع لا يقبل الجدل؛ لأنه تعبير عن افتقاره إلى الاهتمام بالنظرية، والتفسير"[42]. ويتساءل عما إذا كان المهم هو التبصّر في البحث أم مجرد التعلّق بالموضوعية مشيرا إلى أن العلوم الاجتماعية، والسلوكية تبرهن على أننا قد نلهث وراء الموضوعية دون أن نظفر إلاّ بقسط قليل من التبصر، والفهم[43]، ويرى أن التغاضي عن الأحكام الاستبطانية لغرض الحفاظ على النقاء المنهجي ما هو إلا حكم على دراسة اللغة بالجدب، والعقم[44].

وهكذا بينما كان بلومفيلد، وأتباعه يسألون "كيف يمكن أن نصف، ونحلل ما يقوله المتكلم، والكاتب من كلام يمكن للملاحظ الخارجي أن يلاحظه عيانا؟ كان التشومسكيون يسألون "ماذا يدور في عقل المتكلم السليقي، أو الفصيح بحيث يمكن أن يدعى متكلما للإنجليزية، أو السواحلية، أو اليابانية، أو اللاتينية الكلاسيكية، أو أية لغة أخرى[45].

(41) Lyons, 1977, 1: 121.

(42) N. Chomsky, Aspects of the Theory of Syntax (Cambridge: The MIT Press, 1965) p. 193, note1.

(43) Chomsky, N., 1965: 20.

(44) Chomsky, N., 1965: 194.

(45) R.H. Robins, A Short History of Linguistics (London: Longman, 1997) p. 261

ويرتبط هذا الأمر بالحجة التي استخدمها التشومسكيون ضد السلوكيين، وهي ظاهرة اللاتناهي infinity في عدد الجمل التي يمكن للمتكلم في أية لغة أن يقولها. وهي تعني أن ما يحمله المتكلم في رأسه من الجمل الممكنة أكثر بكثير من القولات التي قيلت بالفعل. وقد أدى هذا الأمر إلى العناية بالحدس intuition، والاستبطان introspection بوصفهما أفضل وسيلتين لاستكشاف ما يدور في عقل المتكلم. كما انشغل اللسانيون بأفكار كانت تعد من الميتافيزيقيات التي لا يليق باللسانيات دراستها، ومن هذه الأفكار مفهوم البنية العميقة، وافتراض العمليات الحاسوبية المعقدة التي تحدث في أذهان المتكلمين، والقواعد العمومية التي يولد بها الإنسان. وبذلك تحول البحث اللساني إلى العقلانية، وانتكست التجريبية التي تبناها بلومفيلد، وأتباعه. وقد وصف روبنز Robins الفرق بين منهج تشومسكي، ومنهج التجريبيين بقوله:

"كان تشومسكي، ومن تبعه في منهجه العام ينظرون إلى اللغة من الداخل؛ أي إلى كفاية المتكلم السليقي في استعمال لغته، وفهمها، في حين كان على التجريبيين ـ مخلصين في ذلك لمبادئهم ـ أن ينظروا إلى اللغة من الخارج مثلما تفعل العلوم الطبيعية، وكان عليهم أن يشغلوا أنفسهم حصرا بظاهرتي الكلام، والكتابة التي يمكن ملاحظتهما عيانا"[46].

وبناء على رأي تشومسكي فإن اللغة في حد ذاتها إنما هي مفتاح لفهم جزئي للعقل، أو الدماغ البشري؛ ولذا صرح غير مرة بنظرته إلى اللسانيات على أنها فرع من علم النفس الإدراكي cognitive psychology[47].

ولعل من المهم هنا أن نشير إلى وجود تلازم بين المدرستين التجريبية، والوضعية فيما يتعلق باللسانيات على الرغم مما بينهما من اختلافات تاريخية، وفلسفية. فالوضعية نزعة علمانية نشأت في سياق حملة النقد الموجهة ضد تيار المناظرات الغيبية، والميتافيزيقية، وعرفت برفضها لكل ما

(46) Robins, 1997:262.

(47) See Robins, 1997:262.

ليس له وجود فيزيائي. وكان لهذه المدرسة مبدآن مشهوران هما مبدأ التحقق principle of verification، ومبدأ التخفيض principle of reductionism. ووفقا لمبدأ التحقق لا تكون الفكرة مفيدة ما لم تثبت صحتها بالملاحظة، أو بمناهج علمية معيارية تطبق على المادة المجموعة بالملاحظة، أما مبدأ التخفيض فيقتضي وجود أولويات للعلوم تجعل بعضها أساسا للآخر، فالفيزياء، والكيمياء أكثر أساسا more basic من الأحياء، والأحياء أكثر أساسا من علمي النفس، والاجتماع، وهكذا. وفي التركيبة الكلية للعلم الموحّد تُخفّض مفاهيم (ومناهج) العلوم الأقل أساسا إلى مفاهيم (ومناهج) العلوم الأكثر أساسا (أي يعاد فهمها، وتفسيرها في ضوئها)[48]. وعلى الرغم من أن مبدأ التحقق قد تُخلي عنه الآن فلا نزال نرى أثره في نظرية المعنى القائمة على اشتراط الصحة truth-conditional theory of meaning. أما مبدأ التخفيض فلم يعد جذّابا كما كان في عهد بلومفيلد. وعلى وجه العموم، لقد اتسمت لسانيات القرن العشرين (شأنها في ذلك شأن علمي النفس، والاجتماع) بطابع الفلسفة الوضعية، ولكن هذه الفلسفة بدأت تتعرض مؤخرا - كما يذكر لاينز Lyons- إلى النقد بوصفها غير عملية unworkable، وعقيمة sterile[49]. وهكذا فإن كلتا الفلسفتين التجريبية، والوضعية - خلافا للعقلانية - ترفضان إقحام الموضوعات التي تخرج عن نطاق الملاحظة، أو تتعدى حدود الوصف المقتصر على العناصر التي يمكن التحقق منها. وكما لاحظنا فإن تبني الفلسفة العقلية ميز بوضوح مدرسة تشومسكي من المدرسة السلوكية التي اعتمدت الفلسفتين التجريبية والوضعية، إطارا نظريا لأفكارها.

2.1.1.3 - الكفاية في البحث اللساني:

يرجع جزء كبير من الاختلاف بين بعض المدارس اللسانية على الأقل إلى

(48) Lyons, 1981: 441-2.

(49) Lyons, 1981: 42.

اختلافهم في قدر الكفاية adequacy الذي ينبغي أن يتحقق في البحث العلمي؛ ولذا نراهم يعطون إجابات مختلفة للسؤال الآتي: ما القدر الذي يفي بالمراد في فهم الظواهر اللغوية، واستكناه حقيقتها؟. ويتحدث اللسانيون عادة عن ثلاثة أنواع من الكفاية هي الكفاية في الملاحظة observational adequacy، والكفاية في الوصف descriptive adequacy، والكفاية في التفسير explanatory adequacy. وتأخذ هذه الكفايات السابقة ترتيبا يبدأ بالأولى التي تعد في أسفل السلم، ثم تأتي الكفاية في الوصف التي تتوسط الكفايتين السفلى، والعليا. وبينما تكتفي بعض المدارس اللسانية بالكفايتين الأولى والثانية يصر تشومسكي على أهمية الكفاية التفسيرية؛ بل إنه يرى أنها أهمها على الإطلاق.

وإذا كان اللسانيون يتفقون على أن الملاحظة شرط أساسي في البحث اللساني، كما أنها المنطلق المبدئي لاستكشاف الظاهرة اللغوية، فإنهم يختلفون في موضوع الملاحظة، فالسلوكيون مثلا يرون أن الانتباه ينبغي أن يتركز على العناصر اللغوية القابلة للملاحظة في حين يرى التوليديون بزعامة تشومسكي أن المعرفة اللغوية للمتحدث السليقي هي الموضوع الحقيقي للملاحظة. وهكذا فإن العناية ينبغي أن تنصبَّ على أنماط الجمل، ومناويلها ثم عزو كل قولة فعلية إلى ما يناسبها من تلك الأنماط، وهذه مهمة تتم عادة على مستوى الملاحظة. وعلى الرغم من ذلك فقد أولى تشومسكي هذا المستوى عناية أقل؛ لأن الحقائق المتصلة بالموضوع (التعبيرات، والجمل الممكنة في لغة ما، وخصائصها البنيوية) يحصل عليها من حدس اللساني، وليس من الملاحظة المباشرة، كما أن المعرفة اللغوية للمتكلم السليقي (وليس المادة المدوّنة) هي موضوع اللسانيات(50).

ويمكن توضيح الفرق بين الوصف، والملاحظة أن الوصف يتجه نحو

(50) Dieter Wunderlich, Foundations of Linguistics, Translated by Roger Lass (Cambridge: Cambridge University Press, 1979) p. 70.

الحقائق في حين تتوجه الملاحظة نحو المادة اللغوية سواء تلك التي يمكن ملاحظتها في كلام المتكلمين كما يرى السلوكيون أم تلك التي تأخذ شكل المعرفة اللغوية التي يحملها المتحدثون المثاليون في أذهانهم كما يرى التوليديون، ولا يمكن أن تتحقق الكفاية في الحالتين إلا إذا تمت الملاحظة، أو الوصف على نحو سليم. ومن الشروط الأساسية التي لا يكون البحث العلمي بدونها كافيا في الملاحظة خصيصة الشمولية التي تقتضي عدم إهمال أية سمة من سمات الظاهرة، أو الظواهر المدروسة. أما الوصف فيستلزم ضربا من التجريد الذي يصبغ الدراسة بطابع العلم.

اعتاد السلوكيون، والبنيويون إجمالا قبل تشومسكي على الاقتصار على الوصف في دراسة الظاهرة اللغوية دون الخوض في تسويغها، أو تأويلها، أو تفسيرها، أما التوليديون الذين كان لهم عناية خاصة بفكرة العموميات universals فلم يكتفوا بالملاحظة، أو الوصف، بل رأوا أنه من الضروري إذا ما رمنا فكرة الوصول إلى صوغ قواعد عالمية تنطبق على جميع اللغات أن نغوص في المبادئ، والأسس المفسرة للظواهر الخارجية.

يقول تشومسكي:

«ويتحقق المستوى الأدنى من النجاح إذا قدم النحو المادة الأولية الملاحظة تقديما سليما، ويمكن بلوغ المستوى الثاني، والأعلى من النجاح عندما يقدم النحو تفسيرا سليما للحدس اللغوي للمتكلم السليقي، ويحدد النحو كذلك المادة الملاحظة (ولاسيما) من حيث التعميمات المهمة التي تكشف عن الاطرادات الأساسية underlying regularities في اللغة. ويمكن بلوغ المستوى الثالث (والأعلى على الإطلاق) من النجاح عندما تقدم النظرية اللسانية المعنية أساسا عاما لاختيار القواعد التي تحقق المستوى الثاني من النجاح على حساب قواعد أخرى منسجمة مع المادة الملاحظة ذات الصلة لكنها لا تحقق هذا المستوى من النجاح. وفي هذه الحال تقول إن النظرية اللسانية

المعنية تقترح تفسيرا للحدس اللغوي للمتكلم السليقي"[51].

ولعل من النقاط الجوهرية التي تميز أصول التوليديين من غيرهم أن ما هو ملاحظ ليس بالضرورة هو الأهم في البحث اللساني؛ بل إن "ما هو ملاحظ ربما لا يكون في كثير من الأحيان مناسبا، ولا مهما، وما هو مناسب، ومهم قد تصعب ملاحظته"[52]. ويشبه هذا إلى حد كبير معالجة النحاة العرب لبعض الأبواب، والجزئيات النحوية، والصرفية التي اتسمت في كثير من الأحيان بالتعليل، والتفسير، والتقدير، والتأويل رغبة في بلوغ أكبر قدر من الاطراد، والانسجام.

إن تشومسكي، ولسانيين توليديين آخرين يعدون اختلاف مفهومهم في الكفاية عما يعدونه مفهوم دو سوسور de Saussure الجامد للغة بوصفها خزانة لغوية يكمن في الجانب الإبداعي غير المحدود لمعرفة المتكلم السليقي للغته. وهو ما يميز أيضا إبداعية اللسانيات التوليدية من الهدف التصنيفي المحدود للبلومفيلديين، وهو هدف لا ينكره الجيل البلومفيلدي[53].

3.1.1.3 ـ حدود التجريد:

تختلف المدارس اللسانية في تحديد المدى الذي ينبغي أن يمتد إليه التجريد في البحث اللساني. وتتميز المدرسة التوليدية بوضوح من غيرها من المدارس اللسانية بإغراقها في التجريد، ولعل من نافلة القول أن نذكر بأن هذا يتصل جزئيا اتصالا وثيقا بتعويلهم على الكفاية التفسيرية في فهم الظاهرة اللغوية، وتقدّم اللسانيات. فالوصف اللغوي للبنى السطحية وحدها لا يحقق طموحات التوليدي في التبصر بالأسس المفسرة للشكل الذي تأخذه تلك

(51) N. Chomsky, Current Issues in Linguistic Theory (The Hague: Mouton, 1964) p. 28.

(52) Chomsky, 1964: 28, n.1.

(53) See Robins, 1997: 265-6.

البنيات الخارجية، ولذا ينبغي البحث عما هو أبعد، وأعمق من تلك المظاهر السطحية، فوجدوا ضالتهم في مفهوم البنى العميقة، وفضلا عن ذلك فإن التوليديين يشاركون البنيويين في اعتماد مستوى أقل من التجريد، وهو مستوى الجملة في مقابل مستوى القولة. ويمكن توضيح الفرق بين الجملة، والقولة باللجوء إلى تفريق دو سوسور بين اللغة، والكلام، فبينما تنتمي الجملة إلى اللغة تنتمي القولة إلى الكلام، إذ إن القولة هي التركيب المفيد الذي ينطقه المتكلم بالفعل في سياق معين في زمن معين، وفي مكان معين، أما الجملة فهي ما ينشأ عن تجريد طائفة من القولات المتشابهة إلى الحد الذي يسمح بالحكم بانتمائها إلى نمط تركيبي واحد. ويرى بعض اللسانيين أن هناك مستويات مختلفة من التجريد منها ما يقع بين القولة والجملة كما يرى شنل Schnelle الذي ذكر خمسة مستويات تبدأ بالأحداث الصوتية في الكلام، والخطية في الكتابة بوصفها نتاجا لعملية القول، وتنتهي بأشكال التعبير النحوية المجردة عن الأصوات المنطوقة، والحروف المكتوبة[54]. ومن هذه المستويات ما يقع بين الجملة في بنيتها السطحية، وما يعلوها تجريدا على مستوى البنية العميقة مرورا بدرجة، أو أكثر من البنى الوسطى.

4.1.1.3 ـ موقف اللسانيين من الكليات والجزئيات:

يعود اختلاف المدارس اللسانية، واتجاهاتهم في كثير من الأحيان إلى مواقف أنطولوجية (وجودية) فلسفية. ويعد الحكم في تحديد السابق (الكليات، أم الجزئيات؟) على وجه الخصوص مبدأ مؤثرا في الدراسات اللغوية قديمها، وحديثها، وتبلغ أهمية هذا الأمر حدا يؤدي تغيير الرأي فيه إلى الخروج عن المدرسة الفلسفية، أو اللسانية المتبعة، ولعل من الأمثلة التي يمكن ذكرها هنا خروج اللساني المعروف كاتز Katz عن عقلانية

(54) Wunderlich, 1979: 105-6.

تشومسكي Chomsky's conceptualism إلى الواقعية realism(55). ذهب كاتز إلى القول بأسبقية الجمل بوصفها كليات على القولات بوصفها جزئيات، وكان ينظر إلى الجمل نظرة فلاسفة الرياضيات الأفلاطونيين إلى الأعداد، حيث كانوا يعتقدون بوجودها السابق للمعدودات(56)، ويذهبون إلى القول بأسبقية وجود الحقائق الرياضية، والمنطقية عما عرفه البشر من المنطق، والرياضيات(57). ومن المهم هنا الإشارة إلى أنه مما يترتب على هذا أن علم القواعد الذي يهتم بدراسة الجمل ما هو إلا "نظريات لكيانات مجردة"(58)؛ كما يذكر كاتز، وهو مفهوم، وإن اتفق مع مفهوم تشومسكي في رأيه في موضوع اللسانيات التوليدية، فإنه يخالفه في الاعتقاد بالوجود القبلي للجمل، ووجودها المستقل، والسابق للقولات اللغوية.

ومن الأمثلة الأخرى التي يمكن ذكرها لتوضيح أهمية تحديد الموقف من أسبقية الكليات على الجزئيات، أو العكس رأي ابن تيمية الذي يعتقد بأسبقية الجزئيات، ويرى أن الكليات ما هي إلا نتاج لعملية عقلية يتم فيها تجريد الأفراد المندرجين تحت الكلي باستبعاد خصائصها المميزة، والإبقاء على أوجه التماثل بينها. ولا شك أن لهذا الموقف صلة وثيقة بنظريته السياقية، ونظريته في المجاز، بل لا نبالغ إذا ربطنا هذا بمجمل آرائه، ونظرياته اللغوية، والفلسفية(59). ويشترك ابن تيمية في أصوله هذه مع الدراسات البراغماتية الحديثة؛ الأمر الذي جعل نتائج دراساته في اللغة،

---

(55) لمعرفة موقف كاتز الأنطولوجي انظر: Jerrold J Katz, Linguistic Philosophy: the Underlying Reality of Language and Its Philosophical Import (London: Allen and Unwin, 1972).

(56) See Jerrold J Katz, Language and Other Abstract Objects (Oxford: Basil Blackwell, 1981) P 22.

(57) See Katz, 1981: 181.

(58) Katz, 1981: 3.

(59) Yunis Ali, 2000, PP 87-140.

والنص متقاربة إلى حد كبير مع دراساتهم، وهو ما يؤكد صحة دعوانا في هذه الدراسة، وهي أن الأصول الفلسفية للنظريات اللغوية هي الموجّهة للاتجاهات المذهبية، أو المدرسية.

لقد أدى عزل القولات اللغوية من سياقاتها لغرض بلوغ ضرب من الأمثَلة idealization إلى إغراق في التجريد آل في النهاية إلى تصور مصطنع للغة الحقيقية. وهنا ينبغي أن نشدد على أهمية التفريق بين اللغة النظرية (أو التقديرية theoretical language)، واللغة الملاحظة (الحقيقية، أو الفعلية actual language). وهو تفريق اقترحه كارناب، وأكده وندرليش[60]، وسبق أن ألمح إليه ابن القيّم في معرض رده على أهل التأويل، ومناصري المجاز الذين خلطوا بين الكلام المقدر، والكلام المستعمل[61]. ومثلما فعل نحاة العربية، وجمهور الأشاعرة الذين أولوا آيات الصفات، وقالوا بالكلام النفسي أغفل التوليديون، ومن سار سيرهم الخصائص السياقية المميزة للقولات اللغوية، وأبحروا في غياهب التجريد. وهو أمر آل في نهاية المطاف إلى انعطافة قوية دعا إليها البراغماتيون، والمهتمون بتحليل النص نحو دراسة أكثر واقعية، وتجريبية تأخذ في اعتبارها السياقات الفعلية دون أن تغفل أهمية النمذجة typification في صوغ العلم. والفرق بين الأمثَلة، والتمذجة أن الأمثلة هي عملية مبدئية تصاغ بغض النظر إلى واقع الأمور، والخصائص الحقيقية للأشياء، أما النمذجة فهي مستوى أدنى من التجريد تدرج فيها المتشابهات تحت نموذج واحد يجمع بين خصائص أفرادها. ويذكر وندرليش أنه "ليس هناك حالة حقيقية تتفق مع حالة مثالية (إلا على نحو تقريبي)، أما ما يتفق مع الحالات الحقيقية فهو النموذج"[62]. والمشكلة التي نتعرض إليها عند

(60) Wunderlich, 1979: 69.

(61) الموصلي، محمد، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم الجوزية (مكة: المكتبة السلفية: دار الذخائر، 1349 هـ) 2: 41.

(62) Wunderlich, 1979: 104.

الأمثلة هي الإفراط في التجريد[63]، وهو أمر يؤول في النهاية إلى صياغة ذهنية للمادة اللغوية مختلفة عن حقيقتها، وقد يصاحب ذلك تفسيرات، وتقديرات، وتأويلات نظرية تغفل المبادئ، والأسس الحقيقية المفسرة للظاهرة اللغوية. ولعل هذا ما أدى بالفيلسوف غرايس ـ Grice مثلا ـ إلى صوغ أسس خطابية في تحليله للأحاديث الكلامية، كما أدى بمحللي النص إلى الاقتصار في دراستهم على تحليل الشواهد الحقيقية المأخوذة من الكلام الفعلي، وأهملوا فكرة المتحدث المثالي عند تشومسكي، كما آل ذلك إلى إعادة النظر في مفاهيم راسخة في الدراسات اللغوية، والبلاغية منذ أرسطو إلى عصرنا هذا مثل وجود المجاز، فقد ظهرت نزعات مشككة في صحة التفريق بين الحقيقة والمجاز صدرت عن مهتمين بالبراغماتية، وفلاسفة اللغة، والباحثين في الذكاء الاصطناعي، ومن بينهم نذكر سبيربر Sperber، وويلسون Wilson اللذين صرحا بوجود أسس قوية لإنكار فكرة المعنى المجازي[64].

5.1.1.3 ـ اللغة والكلام:

يعد التفريق بين اللغة، والكلام parole من الثنائيات المشهورة التي قدمها دو سوسور إلى الدراسات اللغوية، فضلا عن ثنائيات أخرى، كالتفريق بين الدراسات التعاقبية، والتزامنية. ويقصد بالكلام هنا ما ينشأ عن الاستخدام الفعلي للغة؛ أي ناتج النشاط الذي يقوم به مستخدم اللغة عندما ينطق بأصوات لغوية مفيدة. وبينما تتسم اللغة بالطابع الاجتماعي بوصفها ظاهرة اجتماعية كامنة في أذهان أفراد المجتمع، يحدث الكلام نتيجة نشاط فردي.

---

(63) Ibid.

(64) Dan Sperber and Deirdre Wilson, "irony and Use-Mention Distinction" in Steven Davis (ed), Pragmatics: A Reader (New York: Oxford University Press, 1991), pp550-564, pp. 551-2.

وعندما تستخدم قولة ما فإن القولة المستعملة لها جانبان:

1 ـ **جانب ينتمي إلى اللغة**: وهو الذي يضمن أن المخاطبين يفهمون ما يقوله المتكلم بوصفه منتميا إلى مجتمعهم اللغوي، ويتحدث لغتهم، ويتمثل هذا الجانب في تقيد المتكلم بقواعد اللغة، والمناويل اللغوية linguistic patterns المتعارف عليها في لغته، والمفردات المعجمية المصطلح عليها.

2 ـ **جانب ينتمي إلى الكلام**: وهو تركيبه لقولة معينة على نحو يحكمه عادة قصده الإبلاغي، واختياره لمفردات معجمية، ومناويل قواعدية بعينها، واستثمار السياق لبيان مقصده.

وثمة صلة بين التمييز بين اللغة، والكلام من جهة، والتفريق بين المعنى، والقصد من جهة أخرى، وهي صلة لم يشر إليها دو سوسور صراحة، ولكنها ترسخت في الدراسات البراغماتية الحديثة التي استفادت من تمييز دو سوسور بين اللغة، والكلام. ولكي نوضح هذه الصلة علينا أن نتصور سياقا لغويا يمكن بيانه كالآتي: (يجلس مجموعة من الطلاب في فصل دراسي مكيّف، ويقف المدرس قريبا من زر جهاز التكييف، وتشتد البرودة داخل الفصل، فيبادر أحد الطلاب بالقول: "الجو بارد يا أستاذ"، (فيتوجه الأستاذ إلى زر المكيّف، ويضغط عليه لإغلاقه)، ولعل جميع الطلاب (وكذلك مدرسهم) يدركون أن المعنى اللغوي لجملة "الجو بارد" هو الإخبار بشعور الطالب ببرودة الجو، وأن المدرّس فهم منها أن الطالب يطلب منه بأسلوب مؤدب أن يغلق جهاز التكييف. وما يهمنا هنا في هذا المثال هو بيان أن معنى "الجو بارد" على المستوى اللغوي يختلف عما يقصد بها بوصفها قولة مستخدمة في هذا السياق. والجانب اللغوي في ما قاله الطالب هو تقيده باستخدام جملة اسمية معهودة في العربية مكونة من مبتدأ، وخبر، ومراعاته لمقتضيات القواعد الصرفية، والنحوية، واستخدامه للمفردات اللغوية في معانيها المصطلح عليها في العربية، أما الجانب

الكلامي فيها فهو أنه اختار هذا المنوال بالذات من بين مناويل أخرى ممكنة، واستثماره للسياق الخارجي لإخراج المعنى اللغوي للجملة من الإخبار إلى طلب.

وهكذا يمكن القول إننا عندما نتحدث فإننا في الواقع ننقل اللغة إلى كلام، والجملة إلى قولة، والمعنى إلى قصد، ودلالات الألفاظ إلى إشارات. ولعله من المهم هنا أن نذكر أن القولة عندما تعزل عن سياقاتها يتعذر علينا أن نفقه المقصود منها، وإن أمكننا فهم معانيها. فعندما ننظر إلى قوله تعالى ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ (القرآن الكريم: الأنبياء 21 : 63) بغض النظر عن السياق الذي وردت فيه، فلا يفهم منها إلا أن شخصا ما ينسب فعلا ما إلى شخص ما هو أكبر المحيطين به، أما إذا نظرنا إليها باعتبارها قولة فسنضطر إلى الرجوع إلى السياق الذي قيلت فيه، وسندرك بعدها أن المتكلم هو إبراهيم عليه السلام، وأنه يشير بكلمة "فعل" إلى كسر الأصنام، وأن الضمير يشير إلى عملية الكسر، وأن "هم" في "كبيرهم" تشير إلى الأصنام، وأن هذا تشير إلى أكبر الأصنام الموجودة، وأن القصد من كل هذه القولة تشكيك المخاطبين في اعتقادهم بألوهية تلك الأصنام، وتوجيه انتباههم إلى عجز كبير الأصنام عن القيام بمثل هذا العمل، وعجز سائر الأصنام عن الدفاع عن نفسها عند تعرضها للكسر، والاستخفاف بعقولهم التي تتمسك باعتقاد ألوهية تلك الأصنام، على الرغم من عجزها عن الدفاع عن نفسها، أو حتى الإخبار عمن كسرها.

ولا يمكن لنا أن ندرك المقصود بكل هذه الإشارات، والمراد من القولة إلا بإقحام العناصر الخارجة عن اللغة، وهي المخاطِب، والمخاطَب، والسياق؛ أي ربط الجملة بزمان، ومكان، ومخاطبين، ومقام تخاطبي، وتحديد ما تشير إليه التعبيرات اللغوية الإشارية، وبهذا الإقحام تكون عبارة "بل فعله كبيرهم هذا" قد خرجت من حيز اللغة إلى مجال الكلام الفعلي.

ما ينتمي إلى اللغة	ما ينتمي إلى الكلام
الجملة	القولة
المعنى	القصد
الإحالات، أو دلالات الكلمات	الإشارات

وثمة صلة بين تفريق دو سوسور بين اللغة، والكلام الذي أثير في سنة 1916، وتفريق آخر قدمه تشومسكي بعد ذلك بخمسين سنة تقريبا بين الكفاية competence، والأداء performance، غير أنه توجد فروق جوهرية أيضا بين هذين التفريقين. وهو أمر كان له انعكاس على فروع المدارس اللسانية التي تقول بأي من التفريقين، فالكلام في ثنائية دو سوسور يشير إلى ناتج الاستخدام الفعلي للغة، وليس لعملية الاستخدام نفسها أي إنه بتعبير النحاة من باب إطلاق اسم المصدر، وإرادة اسم المفعول، وهو ما يجعل من مفهوم الكلام عنده مفهوما جامدا غير ديناميكي، وهذا ينسجم مع مفهومه للغة بأنها نظام من العلامات system of signs (أو الدوال) بدلا من عدّها نظاما من الدلالات كما يراها علماء أصول الفقه مثلا[65]. أما تشومسكي فيرى أن الكفاية هي التمكن من اللغة (بوصفها نظاما لا سلوكا) المخزونة في أذهان متكلميها السليقيين (أو من كان مثلهم إتقانا لتلك اللغة). وهي نتاج التفاعل بين 1 ـ القواعد العمومية (universal grammar) الموجودة في ذهن كل إنسان (تلك المسماة باللغة الملكة) التي يختص بها البشر، وتورث جينيا من إنسان إلى آخر، و2 ـ عدد كاف من القولات النموذجية التي يمكن تحليلها بمساعدة معرفة الطفل الفطرية لمبادئ parameters القواعد العمومية، ومعاييرها[66].

و ينطبق الأداء عند تشومسكي على استخدام اللغة النظام -language

(65) للموازنة بين ثنائية اللغة والكلام، وثنائية الوضع والاستعمال عند الأصوليين انظر Yunis Ali, 2000:15-6, 142-3

(66) Lyons, 1995, p. 21.

system في حين ينطبق الكلام ـ عند دو سوسور ـ على نتاج استخدام النظام. ويرى جون لاينز أن المطلوب ليس تفريقا ثنائيا بسيطا بين النظام، ونتاجه، بل تفريق ثلاثي لا يتميز فيه النتاج product من النظام system فقط، وإنما من العملية process (وهي الأداء، أو السلوك، أو الاستخدام، إلخ)[67]. وهذا التفريق الثلاثي (أي التفريق بين النظام ـ العملية ـ النتاج System-process-product) مهم جدا في علمي البراغماتية pragmatics، والدلالة semantics.

ونظرا إلى أن التوليديين ينظرون إلى اللغة نظرة أكثر ديناميكية، ويرون أن عملية توليد الجملة المحكومة بالكفاية تتم على مستوى اللغة، وليس على مستوى الكلام، فإن ما سمي بالعملية process، وما ينشأ عنها من نتاج product عند تشومسكي إنما هما مفهومان أكثر تجريدا من مقابليهما: العملية، والنتاج عند دو سوسور، وأتباعه، وذلك لأن العملية عند تشومسكي تتم على نحو تجريدي بحيث تبدو مستقلة عن الاستخدام، والسياقات الفعلية للكلام[68]. أما البراغماتيون pragmatists فيعنون بعملية الاستخدام عناية كبيرة، بل إن كلمة pragmatics نفسها تعني "علم الاستعمال". ولذا فإن الكثير منهم يرى أن التخاطب عملية لا تخلو من إخبار، أو استفهام، أو تسمية، أو نحو ذلك مما يسمونه بأفعال الكلام speech acts. وبذلك يتطور المفهوم الجامد للكلام ـ كما شرحه دو سوسور ـ إلى عمل ديناميكي يأخذ طابع الاستعمال، وهو أمر يتيح إقحام مصطلحات ديناميكية أخرى تحل محل نظائرها الجامدة في تراث دو سوسور ربما كان من أهمها استخدام مصطلح القصد intention بدلا من المعنى meaning. وأصبح موضوع تحليل المحادثة conversation بدلا من الجملة، وأضحى اللسانيون يبحثون في مبادئ (أو أصول) التخاطب principles of communication لبلوغ كنه مراد المتكلم بدلا من الاقتصار على البنى اللغوية المجردة.

(67) Lyons, 1995, p. 21.

(68) Lyons, 1995, p. 22.

6.1.1.3 ـ الاختلاف في طبيعة اللغة:

سبق أن ذكرنا[69] أن اللغويين قبل دو سوسور كانوا ينظرون إلى اللغة على أنها مجموعة من الأصوات، تلك العناصر المادية التي يمكن سماعها، ونطقها، وتتسم بخصائص فيزيائية مميزة؛ أي إنها جواهر، وليست أعراضا إذا ما استخدمنا مصطلحات المناطقة. وأدّى إقحام دو سوسور عنصر النظام في اللغة إلى نشأة البنيوية فيما بعد، ثم تطور الأمر بعد ذلك عندما بدأ التعويل على خصيصة أخرى من خصائص اللغة، وهي خصيصة الإنتاجية التي تتيح للمتكلمين توليد عدد غير محدود من الجمل. وقد تقرر في اللسانيات أن الإنتاجية productivity هي إحدى السمات التي تختص بها اللغة البشرية، وهي خصيصة تستلزم أن للمتكلمين حرية في إحداث جمل لم يسبق لهم أن سمعوها. وقد أدت هذه النظرة الجديدة إلى اللغة الطبيعية إلى تحديد معالم المدرسة التوليدية عندما أشار تشومسكي في سنة 1957 إلى أنه "منذ الآن سأعُدّ اللغة طائفة من الجمل (المتناهية، أو غير المتناهية)، كل جملة متناهية في طولها، ومركبة من مجموعة متناهية من العناصر"[70].

7.1.1.3 ـ الاختلاف في تحديد أهم الجوانب اللغوية:

تختلف مدارس اللسانيات باختلاف الجوانب اللغوية التي يوليها اللساني عنايته، فالمدرسة التاريخية تهتم بتاريخ اللغة، والمدرسة البنيوية تهتم ببنية اللغة، والمدرسة الوظيفية تهتم بوظيفة اللغة، والمدرسة التوليدية تهتم بكيفية توليد الجمل اللغوية غير المتناهية من قواعدها المحدودة العدد، والمدرسة التخاطبية تعنى بتجليات اللغة في المقام التخاطبي.

وسنشرح فيما سيأتي ـ بإيجاز ـ كيف اتجهت كل مدرسة إلى تتبع جانب معين من الجوانب اللغوية، ونتتبع الظروف التاريخية، والفلسفية التي

---

(69) ينظر مبحث خصائص اللغة "كون اللغة نظاما".

(70) Chomsky, 1957, p. 13.

أدت إلى أخذ كل مدرسة الاتجاه الذي مالت إليه، كما سنوضح بعض أفكارها، ومبادئها، وفروعها التي تعين على فهم الأصول الفلسفية، والمعرفية الموجهة لاتجاهاتها.

3 . 2 ـ مدارس اللسانيات:

3 . 2 . 1 ـ المدرسة التاريخية:

لقد كان لاكتشاف اللغة السنسكرتية (وهي لغة الهنود الدينية القديمة) أهمية كبيرة في اللسانيات التاريخية، فقد ترتب عليه نشأة فقه اللغة المقارن comparative philology، ويعد المحامي الإنجليزي وليم جونز Sir William Jones (1746 ـ 1794) الذي قام بهذا الاكتشاف المؤسس الحقيقي لهذا الحقل المعرفي بعد أن صاغ افتراضه بأن اللغة السنسكرتية تشترك في أصلها مع اللاتينية، والإغريقية، والقوطية، والفارسية.

ثم تطورت اللسانيات التاريخية متأثرة بنظرية النشوء والارتقاء التي طورها تشارلز داروين Charles Darwin في علم الأحياء، يؤيد هذه الحقيقة أن كتاب أوغست شلايخر August Schleicher (1821 ـ 1868) الذي سماه (الخلاصة Comempndium)، وشرح فيه شجرة الفصائل اللغوية ظهر بعد سنتين فقط من نشر داروين كتابه في إنجلترا سنة 1859. وقد أتبعه في سنة 1863 ببحث عن نظرية داروين، واللسانيات دعا فيه إلى إدراج اللسانيات في العلوم الطبيعية(71). ولا غرو فإن الفكرة الرائجة في ذلك الوقت هي أن اللغة كائن طبيعي حي، ولذا ينبغي دراستها باتباع منهج يراعي هذه الحقيقة، فإذا صحّ أنّ بعض الحيوانات انحدرت من فصائل منقرضة، وأن ثمة قوانين تتحكم في نشوئها، وارتقائها كالصراع من أجل البقاء، والبقاء للأصلح، فمن

(71) جفري سامسون، مدارس اللسانيات: التسابق والتطور، ترجمة محمد زياد كبة (الرياض: جامعة الملك سعود، 1996) ص7.

الممكن إذن إخضاع اللغات البشرية أيضا إلى قوانين مشابهة. غير أنه ليس هناك اتفاق بين لغويي القرن التاسع على الطريقة التي تتطور بها اللغة: هل تسير في اتجاه ارتقائي مثلما هو الحال في علم الأحياء حيث تتطور السلالات الأدنى إلى سلالات أعلى، أو تسير في الاتجاه المعاكس؟

يرى راسموس راسك Rasmus Rask (1787 ـ 1832) أن قواعد اللغات القدمى أكثر دقة، وتعقيدا، وأن تطورها إلى لغات فرعية يسير نحو التبسيط، والتسهيل، ويمثل لذلك بأن اللغة الدانمركية أبسط من اللغة الأيسلندية التي هي أصل لها، وأن الإنجليزية أبسط من اللغة المتفرعة منها، وهي الأنجلوسكسونية. أما شلايخر فيرى أن تاريخ اللغات القديم يشهد بأن التطور يسير من النقص إلى الكمال، حيث تتطور اللغات من العزل إلى اللصق إلى التصريف[72]. ولكي تتضح هذه النقطة علينا أن نذكّر بالتقسيم الثلاثي للغات الذي عرف في القرن التاسع عشر، وهو تصنيف اللغات إلى لغات عازلة كالصينية، والفيتنامية التي تتألف فيها الكلمة من جذر جامد غير متصرف لا يقبل لاصقة، ولا صيغة، ولغات لاصقة كالتركية التي تقبل لواحق زائدة على الجذر، ولغات متصرفة كاللاتينية، والعربية حيث تتألف الكلمة المركبة من مصرفات متمازجة يصعب فصلها فصلا أفقيا؛ بحيث يقال إن الجزء الأول مثلا يعني كذا، والثاني يعني كذا، كما في جمع التكسير في العربية (نحو أبواب، كتب، حدائق)، وبناء على رأي راسك فإن البنية في العربية أكثر تعقيدا من التركية والصينية لكونها القدمى.

وقد اقتصرت مباحث الدراسات اللغوية في القرن التاسع عشر على الكلمات من حيث المستويان الصوتي، والدلالي، وإن كان المستوى الأول أكثر تطورا وموضوعية على الرغم من اعتراف أصحابه بأن النتائج التي توصلوا إليها إنما هي تفسير لنزعات، وليس لقوانين صوتية دقيقة. وكانت

(72) سامسون، 1997: 11 ـ 12.

أبرز الإنجازات في المجال الصوتي، وضع بعض القوانين للإبدال الصوتي، وأشهر هذه القوانين ما عرف بقانون غريم Grimm's Law الذي يفسر كيف تطورت الصوامت في الفصيلة الجرمانية من أصولها في اللغات الهندية الأوروبية[73].

ومن الأسباب التي تذكر لتفسير ظاهرة التغير الصوتي: التقريب الصوتي assimilation، والاختزال الحذفي haplology[74] وفي إطار دراسة العلاقة بين اللغات يشير المؤرخون اللغويون إلى ظاهرتين تعرفان بالقياس analogy[75]، والاقتراض borrowing[76].

---

(73) P. A. M, Seuren, Western Linguistics: An Historical Introduction (Oxford: Blackwell Publishers Ltd, 1998) p. 83-4.

(74) يقصد بالتقريب الصوتي ما ينشأ عن جعل الأصوات المتعاقبة إما متطابقة، أو أكثر تشابها في المخرج، أو في كيفية النطق كما في الكلمتين الإيطاليتين otto، وnotte. فالأولى التي تعني ثمانية مشتقة من اللاتينية octo، والثانية التي تعني ليلة مشتقة من اللاتينية noctis. ويفسر الاختزال الحذفي بأنه فقد واحد، أو اثنين من المقاطع المتشابهة صوتيا من السلسلة، كما في England التي أصلها Engla-land أي بلد الإنجليز (See Lyons, 1981: 207-8).

(75) يعود المصطلح الإنجليزي analogy إلى الكلمة الإغريقية analogia التي تعني الاطراد regularity. وقد كان لفكرة القياس أهمية كبيرة في الفكر الإغريقي خاصة الفلسفة، والرياضيات، والقواعد، ولقيت عناية واضحة من العلماء المسلمين في التراث العربي، والإسلامي لا سيما في الفقه، وأصول الفقه، والنحو العربي. ثم استثمرها المختصون في فقه اللغة المقارن في القرن التاسع عشر في دراستهم للغات الهندية الأوروبية. ومن الأمثلة التي يظهر فيها أثر القياس في تطور الكلمات المحكوم بالقوانين الصوتية the sound-laws ما يذكره النحاة الجدد Neogrammarians من أن الإنجليزية (وكذلك الألمانية) تميز بين الأفعال الضعيفة، والأفعال القوية في اشتقاق المتصرفات. فالأفعال الضعيفة، وهي الأكثر شيوعا في الإنجليزية يشتق فيها الماضي بإضافة اللاحقة ed على صيغة الفعل الدال على الزمن الحاضر كما في jumped المشتقة من jump في حين يشتق الماضي من الحاضر في الأفعال القوية بتغيير داخلي في الصوائت كما يحدث في sang المشتقة من sing، وrode المشتقة من ride، وقد لوحظ أن الأفعال الضعيفة التي يخضع تصريفها إلى قواعد مطردة تتزايد عددا مع مرور الزمن على حساب الأفعال القوية، ويعزى ذلك إلى نزوع المتكلمين إلى استخدام القياس. فالكبار عندما يصادفون فعلا

وفي مجال المعنى كان موضوع التطور الدلالي، وقوانينه محور اهتمام اللغويين التاريخيين في القرن التاسع عشر، ونظرا إلى صعوبة وضع أصول منتظمة للتطور الدلالي، فقد فسر على نحو واسع بمصطلحات تقليدية، أو حدسية مثل تخصيص المعنى، وتعميمه، والمجاز المرسل metonymy، والاستعارة metaphor. ولم يظهر تفسير أكثر تنظيما للتغير، والتطور المعجمي الدلالي إلا في فترة متأخرة جدا على يد ستيرن Stern (1931)، وغيره. ويرى سورن Seuren أن صوغ قوانين للتغير الدلالي يمكن تطبيقها على لغة ما، أو مجموعة من اللغات على نحو مماثل للقوانين الصوتية أمر مستبعد على الإطلاق[77]. ومهما يكن من أمر فإن تلك المصطلحات لا زالت تستخدم حتى الآن، ويعتمد عليها كثير من اللسانيين في توضيح ظاهرة التطور الدلالي.

ولعلنا لحظنا أنّ منهج اللسانيات التاريخية يعتمد على تتبع السببية التاريخية التي تؤول إلى تفسير الظاهرة اللغوية بناء على أسباب تاريخية، وأنّ التأثيل etymology، وهو "دراسة أصل الكلمات، وتطورها"[78] كان وسيلتها

جديدا يفعلون ما يفعله الأطفال في اكتسابهم للغة عندما يقيسون فعلا شاذا على الأفعال المطردة، ففي الإنجليزية الوسطى يستخدمون holp، وليس helped كما هو معروف في صوغ الماضي من الفعل help، وهذا يعني أن متكلمي الإنجليزية ضموا هذا الفعل إلى قائمة الأفعال المطردة. هذا هو الغالب في تطور صيغ الكلمات، ولكننا لا نعدم أمثلة معاكسة، ففي اللهجات الأمريكية يستعملون dove، وليس dived للماضي من dive خلافا لما هو متوقع See Lyons, 1981: 201-3.

(76) الاقتراض borrowing هو أخذ لغة ما عنصرا لغويا، أو أكثر من لغة أخرى، ومن أمثلته اقتراض الإنجليزية كثيرا من الكلمات المبدوءة بالحرفين sk (مثل sky، وskill، وskirt) (من اللهجات الإسكندنافية، وهو السبب الذي يفسر عدم قلبها إلى sh كما هو المطرد مع كلمات أخرى التي تقضي القوانين الصوتية بتغيير (sk) فيها إلى (sh) إذا وقعت قبل الصوائت الأمامية كما هو الحال في نحو (shirt)، وship، و Shed See Lyons, 1981: 206).

(77) See Seuren, 1998: 83.

(78) Lyons, 1981: 55.

المفضلة. ولولا خوف التباس هذا المصطلح في العربية بتحقيق المخطوطات لآثرنا ترجمته بالتحقيق لأنه أدق من حيث مفهومه، فهو مشتق من الكلمة الإغريقية etumos التي تعني حق، أو حقيقي. ويشير لاينز إلى أن إحدى المدارس الإغريقية في القرن الخامس الميلادي كانت تقول أن العلاقة بين الدال، والمدلول علاقة طبيعية، وليست اصطلاحية وأنها اتخذت المنهج التأثيلي سبيلا لإثبات أن أصل الارتباط بين الدال والمدلول في كلمة ما كان طبيعيا، وليس اصطلاحيا. وباتباع هذا النهج فإنهم في الواقع يبحثون عن الحقيقة الخافية على الناظر العادي في العلاقة الظاهرة بين الدال، والمدلول. وبعد تحليل عميق للتغييرات التي حدثت لمبنى كلمة ما، أو لمعناها لغرض اكتشاف أصل الكلمة، ثم ـ بناء على ذلك ـ معناها الحقيقي فإنهم يصلون إلى حقيقة من حقائق الطبيعة. ولكن المشكلة التي يقع فيها أنصار المنهج التأثيلي هي ما سماه لاينز بالزيف التأثيلي etymological fallacy، وذلك حين يحتجون بأن كلمة ما تعود إلى أصل إغريقي، أو لاتيني، أو عربي، أو غيره، ولذا فإن معناها ينبغي أن يكون مطابقا لما كانت عليه في الأصل. ويبدو زيف هذه الحجة في أن الافتراض الضمني بوجود صلة حقيقية، أو مناسبة في الأصل بين المبنى، والمعنى ـ وهو ما تقوم عليه هذه الحجة ـ لا يمكن التحقق منه[79].

وشبيه بهذا ما يفعله بعض الباحثين عندما يفسرون المعنى الاصطلاحي لمفهوم ما بمعناه اللغوي مع أن احتمال ألا يكون المعنى الاصطلاحي مرتبطا بالمعنى اللغوي أمر وارد. وقد سبق لابن تيمية (728 ـ 1328)، وابن قيّم الجوزية (751 ـ 1350) أن اعترضا على استخدام أنصار المجاز المنهج التاريخي في التمييز بين الحقيقة والمجاز مع صعوبة التثبت من أصل اللفظ، وعدم وجود ما يفيد تاريخيا بسبق أحدهما على الآخر[80].

(79) Lyons, 1981: 55.

(80) See Yunis Ali, 2000: 110.

ومهما يكن من أمر فإن التأثيل منهج مستخدم عوّل عليه الكثير من اللغويين تعويلاً كبيراً ولاسيما في القرن التاسع عشر حين وضع على أساس أمتن مما كان عليه قبل ذلك، وما زال يستخدم حتى الآن، ويعد فرعا محترما من اللسانيات التاريخية، أو التعاقبية لما له من أسس منهجية خاصة تتوقف مصداقيتها على كمية الشواهد، ونوعها التي يؤتى بها لتأييد تلك الأسس. وعلى الرغم من ذلك، فمما أصبح واضحا للتأثيليين في القرن التاسع عشر، وسلّم به اللسانيون عامة في الوقت الحاضر أن معظم الكلمات في معجم أية لغة لا يمكن أن تعزى إلى أصولها. وما يفعله التأثيليّون الآن هو ربط كلمات لغة ما (في مرحلة قابلة للوصف التزامني من مراحل اللغة) بكلمات اللغة نفسها في مرحلة أقدم من مراحلها، أو بكلمات لغة أخرى على أن تكون هذه الكلمات قد ثبتت صحتها، أو إعادة تركيبها. ولكن هل يمكن ربط هذه الكلمات التاريخية التي ثبت صحة نسبتها، أو إعادة تركيبها إلى مرحلة أخرى أقدم من ذلك باستخدام وسائل تأثيلية؟ يتوقف ذلك ـ كما يقول لاينز ـ على الشواهد التاريخية التي وصلت إلينا؛ إذ يمكن عزو كلمة ten الإنجليزية الحديثة إما إلى ten، أو tien المستخدمتين في الإنجليزية القديمة، ويمكن أن نصل الكلمة الإنجليزية القديمة من خلال مراحل افتراضية متعاقبة بكلمة أعيد تركيبها، ونسبتها إلى الهندية الأوروبية الأصلية تأخذ صيغة dekm، وتعني أيضا ten، ولكننا لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك. وعلى أية حال، فإن التأثيليين في الوقت الحاضر لا يهتمون بأصل الكلمات، وكل ما يمكن أن يقولوه بثقة تقوى، أو تضعف تبعا للشواهد هو أن كذا وكذا إنما هو مبنى، أو معنى لكلمة افتراضية، أو معروفة أقدم منها[81].

وكما سنوضح في المبحث القادم، فقد انتكس المنهج التاريخي بعد دعوة دو سوسور إلى الفصل بين الدراسات التزامنية، والدراسات التاريخية.

---

(81) Lyons, 1981: 55-6.

2.2.3 ـ المدرسة البنيوية:

البنيوية structuralism هي نسبة إلى كلمة بنية التي هي ترجمة لكلمة structure المأخوذة من الكلمة اللاتينية strucre التي تعني بناء. وقد ارتبطت المدرسة البنيوية باللساني السويسري دو سوسور بعد دعوته المشهورة إلى التمييز بين الدراسات التعاقبية، والدراسات التزامنية، وتشديده على مفهوم البنية، والنظام في اللغة.

لم يكن دو سوسور معارضا للمنهج التاريخي في دراسة اللغة، بل إن تاريخه يشهد بأنه أمضى كل حياته تقريبا في دراسة اللغات، وتطورها معتمدا على هذا المنهج، ولكنه رأى أن اللغويين كثيرا ما يخلطون بين دراسة بنية اللغة في مرحلة زمانية معينة، ودارسة تاريخ تلك اللغة، وتطورها. ولكي يوضح دو سوسور تفريقه بين الدراسات التعاقبية، والدراسات التزامنية شبه اللغة برقعة الشطرنج حيث يتغير وضع الرقعة باطراد تبعا لكل نقلة يقوم بها أحد اللاعبيْن، وفي كل مرة يمكن أن نصف وضع الرقعة وصفا كاملا بتحديد مواقع قطع الشطرنج (يعني الملك، والوزير، والقلعة، والفيل، والبيادق)، وكذلك يمكن أن نفعل مع اللغة حيث يمكن وصفها في كل مرحلة زمانية من مراحلها.

وكما أنه في رقعة الشطرنج لا يهمنا في كل مرحلة من مراحلها ماذا حدث سابقا من نحو: الطريق الذي وصل به اللاعبون إلى كل وضع من أوضاع المباراة، وعدد النقلات السابقة، أو نوعها، أو ترتيبها، بل يمكننا أن نصف الوضع الحالي للمباراة وصفا تزامنيا دون الرجوع إلى كل ما سبق، فكذلك اللغة، فهي تتطور تطورا مطردا من مرحلة زمانية إلى أخرى، ولكننا نستطيع ـ بل يجب ـ أن نصفها في كل مرحلة دون الرجوع إلى ما كانت عليه سابقا، وبغض النظر عما يمكن أن تؤول إليه[82].

(82) See Lyons, 1981: 54.

إن متكلمي اللغة عندما يستخدمون كلمة ما، أو جملة ما لا يخطر ببالهم كيف كانت تستخدم تلك الكلمة، أو تلك الجملة، ولذا فإن الاستخدامات السابقة التي تنتمي إلى مرحلة تاريخية منقطعة عن المرحلة الحالية ليس لها تأثير في وضع اللغة الحالي. إن التأثير الذي ينبغي أن نوليه اهتمامنا هو الذي ينشأ عن علاقة العنصر اللغوي الذي يستخدمه المتكلم (أو الذي يصفه اللغوي) بالعناصر اللغوية الأخرى ذات الصلة بالعنصر المستخدم (أو الموصوف)، ولكي نوضح ذلك، يمكن أن نقارن بين نظام الألوان في اللغتين اليابانية، والعربية: فاللون الأزرق يتحدد بعلاقته بغيره من الألوان في اللغة الموصوفة، وهكذا فإن الأزرق في العربية يعني ما ليس أخضر، وليس أحمر، وليس أبيض إلخ، وهذا تعريف يختلف عن تعريفه في اليابانية؛ لأن الأزرق، وهو ما يعبر عنه اليابانيون بكلمة (أوي aoi) يطلق على ما نصفه في العربية بالأزرق، والأخضر معاً؛ ولذا لا يمكننا القول أن الأزرق في العربية يقابل (أوي aoi) في اليابانية. وبناء على ذلك يمكن القول: إن تحديد كل لون في نظام الألوان يخضع لعلاقته بالألوان الأخرى، وهو يعني أننا نتعامل مع بنية متميزة محددة ليس للتاريخ فيها دور، كما أن كل العوامل الخارجية بما في ذلك ما تشير إليه الألوان في العالم الخارجي ليس له صلة مباشرة بتحديد ما يعنيه اللون الأزرق في اليابانية، أو العربية، بل المحدد هو علاقة الجزء بغيره من الأجزاء. ويمكن أن نضيف هنا أن كل لغة تتصور العالم الخارجي، ومحتوياته بطريقتها الخاصة، وهو ما يقوي فكرة دو سوسور في اعتباطية العلامة اللغوية بطرفيها الدال، والمدلول، ويؤكد من جهة أخرى ـ بناء على ذلك ـ صعوبة الترجمة من لغة إلى أخرى؛ إذ الترجمة ـ وفقاً للمعطيات السابقة ـ ليست إعادة تسميات للأشياء بل إعادة تفكيك، وتركيب للعناصر اللغوية.

وما ينطبق على نظام الألوان ينطبق كذلك على نظام الضمائر مثلاً، فالضمير أنتما في العربية يتحدد معناه بعلاقته ببقية الضمائر من خلال الموازنة

بينه، وبين سائر الضمائر الأخرى، أما تاريخ الصيغة، وكيف تركبت عبر العصور الماضية، وعلاقتها بما هو خارج نظام العربية فليس له صلة بوصف نظام الضمائر في العربية.

إن تحديد نظام (أو بنية) الألوان في العربية لا ينحصر في العلاقات الاستبدالية القائمة بين الألوان المختلفة، بل يتحدد أيضا بعلاقة اللون بما يأتي قبله، أو بعده من كلمات؛ إذ يمكن وصف اللون الأحمر بأنه قان، ولكن لا يجوز أن نقول أبيض قان مثلا. وهكذا فإن تحديد المعنى المعجمي، أو القواعدي لعنصر لغوي معين إنما يكون بالنظر في علاقاته الاستبدالية، والائتلافية معا، وهي التي تؤلف البنية. (راجع مبحث العلاقات الاستبدالية، والائتلافية 1، 6).

إن اللغة نظام نظري مجرد منفصل عن تاريخه، وعن الواقع الخارجي، غير أن هذا النظام المجرد يمكن أن يُجتلى، ويتحقق في الواقع الفعلي، ويرتبط بما هو خارج اللغة عندما ننقله من حيّز الوجود بالقوة إلى حيّز الوجود بالفعل عن طريق الكلام، أو الاستعمال، فعندما أقول "أنتما رجلان كريمان" لم يعد تحديد معنى كلمة أنتما في علاقتها بغيرها من الضمائر هي الوسيلة الوحيدة لفهم دلالتها، بل ينبغي أيضا معرفة ما يشير إليه الضمير في العالم الخارجي؛ أي معرفة الشخصين اللذين يقصدهما المتكلم، ولكن اللغوي الذي يصف العربية لا يهمه المقصود بـ(أنتما) في هذه القولة؛ لأن هذه مسألة لا علاقة لها بنظام (أو بنية) اللغة المجردة التي يوليها البنيوي كل اهتمامه. وبعبارة أخرى، فإن البنيويين ـ خلافا لعلماء التخاطب ـ يعنون باللغة لا بالكلام، أو الاستعمال. (راجع مبحث اللغة، والكلام (1، 5).

إن بنيوية دو سوسور تعني دراسة بنية (أو بنى) اللغة في حد ذاتها على نحو مستقل، ليس فقط بعزلها عن التاريخ، أو العالم الخارجي، بل أيضا عن نسيجها الاجتماعي التي تعيش فيه، والعمليات النفسية التي يقوم بها متكلموها عند فهمها، أو اكتسابها، ولذا فمن المناسب جدا أن تكون

الدراسات البنيوية مقتصرة فقط في إطار اللسانيات على اللسانيات المضيّقة microlinguistics[83].

ومن الأسماء التي تذكر عادة في مسرد أعلام المدرسة البنيوية اللساني المشهور هيلمسلف Hjelmslev الذي تأثر كثيرا بدو سوسور لاسيما في عنايته بالمباني (أو الأشكال) على حساب الجوهر (أو المحتوى، والمادة)، وحاول أن يطور أفكاره البنيوية فيما عرف عنه بالتأويلات glossematics، ونتيجة لصعوبتها، وطبيعة مصطلحاتها غير المتجانسة لم تنل تلك الأفكار الاهتمام الذي تستحق. ومن الانتقادات التي وجهت لتأويلات هيلمسلف أنها نسخة نظرية، وشخصية للسانيات دي سوسور غير أنه طبقها على نحو فيه مغالاة منطقية[84].

وربما كان من المفيد أيضا التنبه على أنه بينما اهتمت البنيوية الأوروبية بزعامة دو سوسور بالعلاقات الاستبدالية، كان البنيويّون الأمريكيّون يولون عنايتهم بالعلاقات الائتلافية، ويعود هذا إلى أسباب منهجية سنوضحها فيما بعد.

تميزت البنيوية الأمريكية بالصرامة العلمية، والمنهجية، ويرجع هذا إلى رائدها بلومفيلد الذي كان متأثرا إلى حد كبير بعالم النفس السلوكي واطسن Watson. وقد شرح بلومفيلد منهجه في الدراسات اللسانية في كتابه: "اللغة" "Language"، وكان أحد ثلاثة لسانيين بارزين في اللسانيات الأمريكية في الثلث الأول من القرن العشرين، والآخران هما فرانز بواز، وإدوارد سابير اللذان عرفا باهتمامهم باللسانيات الموسعة بدلا من الاقتصار على اللسانيات المضيقة. وقد انعكس هذا في التطرق للمباحث الأدبية، والفنية، والإناسية، والنفسية، وبيان الصلة بين هذه المباحث من جهة،

(83) See Lyons, 1981: 220-1.

(84) Robins: 1997: 226.

والمباحث اللسانية من جهة أخرى[85].

دعا بلومفيلد إلى إبعاد دراسة المعنى من الوصف اللغوي بسبب صعوبة البحث فيه بحثا موضوعيا، ومع أن بلومفيلد لم يقلل من شأن دراسة المعنى، أو يدعو إلى عدم دراسته غير أن تعليقاته في هذا الموضوع لم يحملها الكثير من اللسانيين على المحمل الذي كان يقصده، فأدى ذلك إلى إعراض جيل من اللسانيين عنه[86] في الربع الثاني من القرن العشرين، وربما كان هذا أحد أسباب تخلف البحث الدلالي عن نظائره من فروع اللسانيات الأخرى.

وقد يكون من نتائج الاتجاه البلومفيلدي نحو العناية بالبنية، وإبعاد المعنى أن بدأ اللسانيون يميلون إلى الوصف القواعدي لبنية الجملة، فشاع عندهم ما يعرف بتحليل البنية المكوّنة الطارئة immediate constituent analysis الذي تربط فيه المصرّفات بعضها ببعض في مشجّرات. وقد مهد ذلك لظهور التوزيعيين distributionalists الذين أخذ الوصف اللغوي عندهم طابع العناية بالعلاقات التوزيعية بين الصيتات phonemes في المركبات المتألفة منها وبين المصرفات morphemes في المركبات المتألفة منها[87]، وعلى الرغم من أن هاريس Harris قد تمكن من تطوير جوانب من اللسانيات البنيوية فقد شاع إطلاق البنيوية حصرا على التحليل اللغوي الذي نظّر له بلومفيلد[88].

3.2.3 ـ المدرسة الوظيفية:

على الرغم من اختلاف المدرسة الوظيفية functionalism عن المدرسة البنيوية في كثير من القضايا فإنها مثلها في ذلك مثل المدرسة التوليدية ـ

(85) Robins: 1997: 226-7.

(86) Robins, 1997: 243.

(87) Robins, 1997:239.

(88) Robins, 1997:239.

تمثل اتجاها متفرعا عن البنيوية. ولذا فإن بعض اللسانيين يرون أن البنيوية هي الإطار العام الذي يشمل معظم ـ إن لم يكن كل ـ الاتجاهات التي ظهرت في القرن العشرين.

وتتميز المدرسة الوظيفية من غيرها من المدارس اللسانية "باعتقادها أن البنى الصياتية، والقواعدية، والدلالية محكومة بالوظائف التي تؤديها في المجتمعات التي تعمل فيها"[89]، وفي ذلك خروج عن المبدأ الواضح الذي أرساه دو سوسور، وتبعه في ذلك البنيويون من أن البنى اللغوية ينبغي أن تدرس في حد ذاتها بغض النظر عن العناصر الخارجة عن اللغة بوصفها نظاما مجردا مستقلا، وتتلخص وجهة النظر الوظيفية في صعوبة الفصل بين البنية اللغوية، والسياق الذي تعمل فيه، والوظيفة التي تؤديها تلك البنية في السياق.

وتعد مدرسة براغ Prague School أفضل من يمثل الاتجاه الوظيفي في دراسة اللغة، وقد نشأت هذه المدرسة في أحضان حلقة براغ اللسانية Prague Linguistic Circle التي أسسها اللساني التشيكي فاليم ماثيوس Vilem Mathesius (1882 ـ 1945). ولم تقتصر المدرسة الوظيفية في عضويتها على اللسانيين المقيمين في براغ فقط بل شملت أيضا غيرهم ممن يقيمون في بقاع أخرى، وكانوا يشاركون المدرسة أصولها، وأفكارها الأساسية. وبعد وفاة ماثيوس قام لسانيون آخرون أبرزهم بيتر سغال Petr Sgall، وإيفا هاجيكوفا Eva Hajicova اللذان حافظا على مدرسة براغ في أحلك الظروف التي مرت بها إبان الحكم الشيوعي، وقد نجحا في إحياء حلقة براغ اللسانية رسميا في نوفمبر 1992 بعد سقوط الشيوعية بثلاث سنوات[90]. اشتهر مؤسس المدرسة ماثيوس بما يعرف بالنظرة الوظيفية للجملة، وهي التي سنناقشها في الفقرة التالية.

---

(89) Lyons, 1981: 224.

(90) Seuren, 1998: 158.

3.2.3.1 ـ النظرة الوظيفية للجملة:

تعد النظرة الوظيفية للجملة functional sentence perspective امتداداً للمناقشة التقليدية الحامية التي كانت تحدث في نهاية القرن التاسع عشر حول ثنائية الموضوع subject، والمحمول predicate، وكان لأستاذ الفلسفة في براغ أنتون مارتي Anton Marty الذي كانت أفكاره مؤثرة في نشأة مدرسة براغ نشاط بارز في هذه المناقشة. وقد عبّر ماثيوس عن أفكاره في شكل ثنائيات متمايزة تتعلق بالطرفين الأساسيين للجملة، وتأثير كيفية ترتيبهما في الوظيفة التي تؤديها الجملة. وهذه الثنائيات هي ثنائية الموضوع topic، والتعليق comment، أو البؤرة focus وثنائية المتقدم theme، والمتأخر rheme، وثنائية المسلّمة given، والإضافة new. فالمتقدم هو الشيء المتحدث عنه الذي يفترض المتكلم معرفة المخاطب له، والمتأخر هو الجزء المتمم للجملة الذي يضيف إلى معلومات المخاطب السابقة معلومات جديدة تتصل بالمتقدم، والمسلّمة هي ما يقدمه المتكلم من معلومات يدركها السامع من مصدر ما في المحيط (أي المقام، أو النص السابق)، والإضافة ما يقدمه المتكلم من معلومات لا يدركها السامع من مصادر أخرى[91]، ففي الجملتين:

(1) مؤسس الدولة الأموية هو معاوية بن أبي سفيان

(2) معاوية بن أبي سفيان هو مؤسس الدولة الأموية

نجد أن المعنى الإسنادي (أو النسبة الخارجية كما يقول المناطقة، والبلاغيّون) واحد فيهما، إذ كلاهما يفيد أن تأسيس الدولة الأموية كان على يد معاوية بن أبي سفيان، وبناء على ذلك فهما مترادفان تقريباً، ولكن من الواضح أنهما يستعملان في سياقيين مختلفين، واختلاف السياقين يفسر بما

(91) M. A. K. Halliday & R. Hasan, Cohesion In English (London: Longman, 1976) p. 326.

يعتقده المتكلم بشأن ما يعرفه المخاطب حول موضوع الجملتين، فكل جملة من الجملتين تفترض أن أحد الطرفين يعرفه المخاطَب، وهو معاوية بن أبي سفيان في الجملة الأولى، وتأسيس الدولة الأموية في الثانية، وأن الطرف الثاني غير معروف، وهو من أسس الدولة الأموية في الجملة الأولى؟، ومن هو معاوية بن أبي سفيان في الجملة الثانية؟ فالمعلومات التي يفترض المتكلم أن المخاطب يعرفها تسمى مسلّمة given information، والمعلومات التي يضيفها تسمى إضافة، أو معلومة جديدة new information. وكما هو واضح فإن بنية كل جملة من الجملتين السابقتين محكوم بالوظيفة التي يريد المتكلم أن يؤديها خطابه، ففي (1) كانت الوظيفة (أي الغرض الإبلاغي) هي الإعلام بمن أسس الدولة الأموية، وفي (2) كانت الوظيفة هي التعريف بمعاوية بن أبي سفيان. إن الفرق الأساسي في معالجة البنيويين، والوظيفيين لهذه الجملة يتمثل في أن البنيويين يصفونها كما هي في حين أن الوظيفيين يتساءلون عن سبب كونها كذلك؛ أي إن البنيويين يحاولون الإجابة عن كيف، أو ماذا، وأن الوظيفيين يحاولون الإجابة عن لماذا.

وتختلف اللغات في مدى حرية المتكلم في ترتيب المسند إليه، والمسند، فبينما تتيح العربية مثلا احتمالات مختلفة بسبب وجود قرينة الإعراب التي بها نستطيع أن نميز المعلومات المسلمة من المعلومات الجديدة، تعد الإنجليزية من اللغات التي تكون فيها الرتبة مقيدة إلى حد كبير؛ ولذا فهي تلجأ إلى قرينة التنغيم أكثر من غيرها في تحديد المعلومات المسلّمة، والمعلومات الجديدة، وقد تلجأ أيضا إلى استخدام صيغة المجهول الذي تتضمن الأداة by كما في The rat was eaten by the cat .

وهو الأسلوب الذي يترجم خطأ في العربية بـ الجرذ أكل من قبل القط، وترجمته الصحيحة هي الجرذ أكله القط؛ لأنّ هذه الترجمة تؤدي الوظيفة (أو الغرض البلاغي) التي يقصدها المتكلم، وهي إظهار العناية بالجرذ، وليس بالقط لأنه هو موضوع الحديث، وفي الوقت ذاته تحافظ

على البنية المألوفة في العربية دون اللجوء إلى بنية غريبة مستوردة (وهي "من قبل" في السياق المذكور).

وإضافة إلى الإعراب تؤدي قرينة المطابقة في اللغة العربية، وكذلك اللغة التشيكية مهمة التمييز بين الفاعل، والمفعول، وهو ما يتيح للمتكلم اختيار من يقدم أولا الفاعل، أو المفعول حتى عند غياب قرينة الإعراب، وذلك كما في المثال الآتي:

ضربت عيسى يسرى.

ومن العناصر اللغوية الأخرى التي تحدد القديم من الجديد من المعلومات أداة التعريف (كـ ال في العربية، و the في الإنجليزية)، حيث يشير العنصر المرتبط بها إلى شيء يعرفه المخاطب، أما غيابها، أو وجود أداة التنكير (كالتنوين في العربية، وa في الإنجليزية) فيفيد أن العنصر المرتبط بها لا يعرفه المخاطب. ومن الأمثلة التي يمكن ذكرها هنا قوله تعالى:

﴿ولقد أرسلنا إلى فرعون رسولا، فعصى فرعون الرسول﴾. (القرآن الكريم، المزمل 16: 73).

فقد أشارت كلمة "رسولا" الخالية من أداة التعريف إلى مرجع غير معروف في حين كان دخول ال على كلمة رسول الثانية سببا في تحديد المقصود بالرسول.

ويرى اللسانيون الوظيفيون أن المخاطِب هو الذي يقرر أي من المعلومات ينبغي أن يعد من المسلَّمات، وأيها ينبغي أن يعد جديدا، وقد أكد هاليدي Halliday هذه الحقيقة عندما ذهب إلى القول بأن "الذي يحدد وضع المعلومة ليس بنية الخطاب بل المتكلم"[92]. ومن الوسائل المعينة لمعرفة المعلومة المسلمة من المعلومة الجديدة في قولةٍ ما هو أن نجعل

(92) براون، ج ب، و ج يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد الزليطني، و منير التريكي (الرياض: جامعة الملك سعود، 1997) ص225.

القولة جوابا لسؤال نسأله بعد النظر في محتواها الدلالي، انظر كيف يمكن أن نعرف المعلومة الجديدة من خلال طرح الأسئلة في القولات الآتية[93]:

س1 ـ ماذا فعل القط؟

ج1 ـ لقد أكل الجرذ.

س2 ـ ماذا حدث للجرذ؟

ج2 ـ لقد أكله القط.

س3 ـ هل الكلب أكل الجرذ؟

ج3 ـ لا، بل القط هو الذي أكل الجرذ.

س4 ـ هل القط أكل الجرذ؟

ج4 ـ لا، بل الجرذ هو الذي أكله القط.

لاحظ أن المعلومة المسلمة يشار إليها بالضمير كما في الجواب رقم (1) حيث أشير إلى القط بالضمير المستتر في "أكل".

ويقسم الوظيفيون ما تعورف عليه بالمتقدم ثلاثة أقسام: المتقدم الموضوعي topical theme، والمتقدم الشخصي interpersonal theme، والمتقدم النصي textual theme[94]. فمثال المتقدم الموضوعي القط في نحو "القط أكل الجرذ"، ومثال المتقدم الشخصي بصراحة في نحو "بصراحة، أداؤك لا يعجبني"، ومثال المتقدم النصي على أية حال في نحو "على أية حال، حاول أن تعيد النظر في أدائك، وسترى".

2.3.2.3 ـ الدراسات الصياتية والصرفية:

كان للوظيفيين اهتمام كبير بدراسة الأصوات فاق أي اهتمام آخر، وكان

(93) D. Nunan, Introducing Discourse Analysis (London: Penguin English, 1993) p. 45.

(94) Nunan, 1993: 46-7.

لهم الفضل في التمييز بين علم الأصوات، وعلم الصياتة، وهذا التركيز على الدراسات الصياتية لم يقتصر على أتباع مدرسة براغ بل ينطبق أيضا على مدرسة فيرث، ولاسيما في مراحلها المبكرة(95). ولعل من الجدير بالذكر هنا أنه باستثناء الإسهامات التي قامت بها مدرسة براغ في مجالي النظرة الوظيفية للجملة، ونظرية الموضوع، والتعليق المشار إليهما سابقا فإن أفكارهم النحوية والدلالية تجاوزتها التطورات التي قام بها اللسانيون الأمريكيون، أما إسهاماتهم في الصياتة فلا تزال مؤثرة في اللسانيات الأمريكية المعاصرة. ويعود تطوير النظرية الصياتية إلى رومان ياكبسون (Roman Jakobson (1896 - 1982) الذي صاغ فكرة العموميات universals، تلك الفكرة التي استفاد منها التوليديون في علم الصياتة التوليدي generative phonology. وفي صوغه لفكرة العموميات يعارض ياكبسون دو سوسور، وبواس في زعمهما بوجود نسبية بين اللغات، وأن كل لغة لها نظامها الخاص، فقد ذهب إلى القول بوجود اثنتي عشرة سمة مميزة موجودة في جميع اللغات. وسنرى في الحديث عن المدرسة التوليدية أن إنكار النسبية، والقول بالعموميات يوافق الأسس التي تقول بها المدرسة التوليدية.

وتحدث ياكبسون أيضا عن ضوابط عامة منتظمة تتصل بكيفية اكتساب الطفل بعض الأصوات، وكيفية فقدها عند الإصابة بمرض الحبسة aphasia الذي يؤدي إلى العجز عن نطق الأصوات، ومن بين ما يذكره ياكبسون في هذا المجال أن التمييز بين الصوامت الانفجارية، واللّثوية (/b/، و/t/ مثلا) يسبق التمييز بين الصوامت اللهوية، واللثوية (/k/، و/t/ مثلا)، وهو ما يفسر المشكلة التي يعاني منها الطفل في نطق الكاف /k/ حين يحرفه إلى تاء /t/. ويتعلم الأطفال الصفات الانفجارية قبل الاحتكاكية أما آخر الصوامت التي يميز بينها الطفل فهما الراء /r/، واللام /l/. وعندما يفقد الإنسان القدرة على

(95) Robins, 1997:238.

النطق على نحو تدريجي تكون التمييزات الأخيرة في تدرج النمو اللغوي عند الطفل أول ما يفقده، فإذا استعاد قدرته على النطق مرة أخرى كان ترتيب استعادة النطق معاكسا لترتيب الفقدان، وموافقا للطريقة التي يكتسب بها الطفل القدرة على التميز بين الأصوات ابتداء[96].

وربما كان من أهم إنجازات مدرسة براغ في مجال الدراسات الصياتية ما يسميه اللساني الروسي نيكولاي تروبتسكوي Nikolai Trubetzkoy (1890 ـ 1938) بالسمات المميزة distinctive features. وعلى الرغم من أن تروبتسكوي، وأتباعه في مدرسة براغ طبقوها على التحليل الصياتي phonological analysis فقد طبقها جاكبسون على علم الصرف، وأفاد منها النحاة التوليديون، والتحويليون إلى حد كبير، كما أفاد منها علماء الدلالة، ولاسيما في نظرية الحقول الدلالية semantic fields.

كان تروبتسكوي عضوا في حلقة براغ اللسانية، وعد كتابه مبادئ الصياتة Principles of Phonology الذي أكمله قبل وفاته بقليل المصدر الأساسي لإيضاح منهجه الوظيفي في دراسة الأصوات.

أولى تروبتسكوي اهتماما كبيرا بالعلاقات الاستبدالية بين الصيتات، فوازن بينها معتمدا في تمييز بعضها من بعض على السمات التي تميز إحداها من الأخرى. وأشار إلى أنواع من التقابلات التي تقع بين الصيتات نذكر منها:

(1) التقابل الخاص private opposition، وذلك حين يكون المميز بين الصيتتين سمة واحدة كما في التقابل بين التاء والدال اللذين نقول في التمييز بينهما أن الدال /د/ مجهورة، والتاء /ت/ مهموسة.

(2) التقابل التدرجي gradual opposition، وذلك حين يكون الاختلاف بين الصيتات ناشئا عن سمة التدرج كما في الفرق بين الصيتة القصيرة

(96) سامسون، 1996: 126 ـ 7.

الكسرة العربية، ومقابلتها الأطول ياء المد.

(3) التقابل المتكافئ equivalent opposition، وذلك حين يكون للصيتة سمة مميزة ليست في الصيتات الأخرى، كما في التاء /ت/، والكاف /ك/.

لم تكن الوظيفة التمييزية distinctive function الوظيفة الوحيدة التي اكتشفها تروبتسكوي، وأتباعه، بل ثمة أيضا الوظيفة المحدِّدة demarcative function التي تبين الحدود بين مبنى لغوي، وآخر في السلسلة الكلامية، وتعزز التماسك في المبنى اللغوي الواحد كي يبدو موحدا. وإذا كانت الوظيفة التمييزية تنشأ عن مقابلة الصيتات بعضها ببعض، فإن الوظيفة المحددة تنشأ عن استخدام السمات فوق المقطعية suprasegmental features التي تتعلق بسلسلة صياتية مكونة من صيتتين فأكثر، وذلك كالنبر stress، والنغمة tone، والطول length[97]. فالنبر مثلا يميز بين صيغة الاسم في الكلمة الإنجليزية import، وصيغتها الفعلية import (حيث يكون النبر في الاسم على المقطع الأول، وفي الفعل على المقطع الثاني). وهناك سببان لاعتبار هذه السمة فوق مقطعية، أو عروضية prosodic (كما يحلو للبعض أن يسميها): أولا: أن النبر مسألة تتعلق بطغيان (أو إبراز ل) مقطع على المقاطع الأخرى التي تشترك معه في المبنى نفسه، أو في المباني المصاحبة له. وثانيا: أن التحقق الصوتي للنبر لا يمكن أن يوصف بأنه سابق، أو لاحق من الناحية الزمانية للتحقق الصوتي لما يحاذيه من عناصر صياتية أخرى، وفي هذا يختلف عن السمات المقطعية التي يمكن أن نقول فيها ذلك[98]. ومن القواعد فوق المقطعية في العربية التي يمكن أن تذكر هنا أن المقطع لا يبدأ إلا بصامت، وأنه لا يبدأ بصامتين متواليين، وأن النبر يقع على نهاية المقطع في الكلمات المكونة من مقطع واحد، وعلى نهاية المقطع الثاني في

(97) See Lyons, 1981:224-5.

(98) See Lyons, 1981:94.

الكلمات المكونة من مقطعين[99].

وإذا كان التقابل بين الصيتات يعبر عن اختلافها، واختلاف معاني الكلمات بناء على ذلك، فإن التقابل بين بعض التنوّعات الصوتية allophones للصيتة الواحدة قد يكون له وظيفة تعبيرية expressive function. فكلما ضاقت فتحة الصائتين /au/ في لهجة لندن عبر ذلك عن تدني مكانة المتكلم الاجتماعية[100]. وكذا فإن نطق الضاد دالا عند النساء في مصر (كما في كلمة "تفضّل") يعبر عن جنس المتكلم.

3.3.2.3 ـ نظرية فيرث:

في أثناء الأربعينيات، والخمسينيات من القرن العشرين ظهر تحد قوي لبلومفيلد من فيرث J. R. Firth، وأتباعه في جامعة لندن. كانت عناية فيرث، وأتباعه منصّبة على علمي الصياتة، والدلالة، ولم يول النحو، والصرف العناية التي يستحقانها[101]. وبرزت في هذا الشأن نظرية التحليل العروضي prosodic analysis التي كانت جزءا من نظريته السياقية في اللغة The contextual theory of language. ويبدو أن هذا الاقتصار على الاهتمام بالأصوات كان تقليدا سائدا في بريطانيا منذ سويت Sweet، ودانيال جونز D Jones في بداية القرن العشرين.

يمكن تلخيص نظرية فيرث في كونها تنظر إلى المعنى على أنه وظيفة في سياق، وهو ما عدَّ تحولا في النظر إلى المعنى بعد أن كان يوصف بأنه علاقة بين اللفظ، وما يحيل عليه في الخارج، أو في الذهن من حقائق وأحداث، تلك النظرة التي كانت سائدة في الفلسفة الغربية التقليدية بعد انحدارها من الفلسفة اليونانية. وربما كان القارئ للفكر الفلسفي، والمنطقي،

(99) انظر قدور، أحمد محمد، مبادئ اللسانيات (دمشق: دار الفكر، 1996) ص 117 ـ 118.

(100) سامسون، 1996: 113.

(101) 0 See Robins, 1997: 246.

والأصولي في تراث العربية قد ألف هذه النظرة العقلية للمعنى[102]. وهي النظرة نفسها التي شرحها أوجدن Ogden، وريتشاردز Richards في كتابهما معنى المعنى the meaning of meaning، وطوّراها فيما عرف بالمثلث الدلالي.

ويعد ما فعله فيرث في هذا الشأن نقلة إبستمولوجية أنطولوجية كبيرة في حقل اللسانيات؛ لأنها دعمت الموقف السلوكي في ذهابه إلى صعوبة البحث الدلالي المعتمد على المنطق، والتصورات الوجودية المختلفة التي كانت سائدة في الفلسفة الإغريقية، كما فتحت الباب واسعا نحو نهج جديد في دراسة المعنى على نحو يراعي الاستخدامات الفعلية للغة.

يرى فيرث أن الوقت قد حان للتخلي عن البحث في المعنى بوصفه عمليات ذهنية كامنة، والنظر إليه على أنه "مركب من العلاقات السياقية"[103]. وذهب إلى أن الوظيفة الدلالية لا تتأتى إلا بعد أن تتجسد القولة في موقف فعلي معين[104]؛ أي بعد أن تخرج من خانة الوجود الوضعي الكامن إلى حيّز الوجود الاستعمالي الفعلي، وهو أمر لا يتحقق - حسب رأيه - إلا في سياق الموقف. وقد اقتبس هذه النظرية؛ أعني نظرية

(102) ينظر على سبيل المثال:
- أبو حامد الغزالي، معيار العلم في فن المنطق (بيروت: دار الأندلس، ط4، 1983) ص 46 - 47.
- الشريف الجرجاني، أبو الحسن علي، التعريفات (تونس: الدار التونسية للنشر، 1971) ص 116.
- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط3، 1986) ص19.
- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى، وعلي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار الجيل، (د - ت) 1: 42.

(103) J. R. Firth., Papers in Linguistics 1934-1951 (London: Oxford University Press, 1957) p. 19.

(104) John Lyons, J., Firth's Theory of Meaning. In Bazell, C. E. et al. (Eds), In Memory of J. R. Firth, (Longman 1970) p. 296.

سياق الموقف theory of context of situation من الإناسي anthropologist مالينوفسكي B. Malinowski.

وهكذا بدلا من الحديث عن العلاقة الثنائية بين اللفظ والمعنى صار الحديث في المدرسة السياقية عن مركب من اللفظ والمعنى في علاقته بغيره من المركبات التي يمكن أن تحل محله في نفس السياق. وبرز ما يسميه فيرث بالتوزيع السياقي contextual distribution المحكوم بمنهج الإبدال method of substitution الذي يقتضي أن الكلمة مثلا ما هي إلا مقابل إبدال معجمي lexical substitution لكلمات أخرى يمكن أن تحل محلها في ذات السياق، ويتحدد معناها بمقدار ما يحدثه هذا المعنى من تغيير.

وعلى المستوى الصياتي تجاوز فيرث النظرة النفسية للصيتة phoneme التي صاغها بودان دي كورتيني Baudouin De Courtenay (1845 ـ 1929)، وكان ينظر بمقتضاها إلى الصيتة على أنها "صورة عقلية" أو "صوت مفرد مجرد"[105]، وأصبحت الصيتة تتحدد "بدراسة الصوت في علاقته بالسياقات الأصواتية التي يظهر فيها، وفي علاقته بالأصوات الأخرى التي يمكن أن تحل محله في تلك السياقات"[106].

استفاد فيرث من تراث دو سوسور لاسيما في مجال العلاقات الاستبدالية، والائتلافية التي وظفها في منهج الإبدال حيث تدخل العناصر اللغوية في علاقات عمودية بين العنصر المذكور، وغيره مما يمكن أن يحل محله، وعلاقات أفقية بين العناصر المتجاورة.

وعلى الرغم من أهمية التغيير الذي جاء به فيرث في البحث اللساني عامة، وفي تفسير المعنى خاصة؛ فإن مشكلة فيرث هي أنه لم يعرض نظريته

---

(105) D. Jones, The Phoneme its Nature and Use. Cambridge: Cambridge University Press, 1976) p. 213.

(106) Firth, 1957:20-1.

عرضا كاملا، وشاملا يبرز فيه الأسس الفلسفية، والمعرفية لأفكاره السياقية؛ إذ لم يتجاوز ما كتبه عن هذه النظرية ما يبلغ حجم كتاب كما يذكر روبينز[107]. ولعل هذا ما أغرى هاليدي في بداية الستينيات ليقدم شرحا، وتفسيرا مفصلين لنظرية فيرث، ويضمنها أبعادا جديدة بحيث لم تعد قاصرة على مستوى الجملة بل تجاوزتها إلى ما هو أكبر منها حتى غدا النص ـ وليس الجملة ـ الوحدة الصغرى للتحليل. أخذ هاليدي مستويات التحليل اللغوي الثلاثة من فيرث بعد وفاته، وكان منهجه إجمالا امتدادا، وتكملة، وتطويرا لمنهج فيرث[108].

وبغض النظر عن مدى النجاح الذي حققه هاليدي فإن مما لا ريب فيه أنه فتح آفاقا جديدة للبحث النصي، وأعطى أهمية كبيرة في الدراسات اللسانية (لاسيما فيما عرف بلسانيات فيرث الجديدة neoFirthian linguistics) لعنصر السياق، والأبعاد الوظيفية للغة، ومهّد السبيل للتوسع في الدراسات التخاطبية. وعلى أية حال، فسيبقى الفضل محفوظا لفيرث في إعادة اعتبار المعنى في الدراسات اللسانية، وهو أمر ـ وإن لم يكن راثقا لمعاصريه ـ فقد انعكس في عدد من الدراسات الحديثة مثل تلك التي تعنى بدراسة المحادثة conversation، وأفعال الكلام speech acts والافتراضات presupposition، ومناسبة الكلام للسياق relevance[109].

وهنا ينبغي أن نؤكد بشدة على أن الوظيفيين عموما لم يقصروا وظيفة اللغة على التعبير عن أفكار متكلميها كما كان سائدا في التقاليد الفلسفية الغربية السابقة لظهورهم، بل أصروا على تعدد وظائف اللغة سواء منها الإبلاغية informative، أو التعبيرية expressive، أو الاجتماعية social، أو الطلبية conative. وقد تجاوز اهتمام مدرسة براغ حدود الدراسات اللغوية

(107) Robins, 1997:246.

(108) See Robins, 1997:246.

(109) See Robins, 1997:253.

المحضة، فخاضوا في الدراسات الأدبية والجمالية حتى إنهم اتهموا أحيانا بغياب المنهجية، وإخراجهم البحث اللساني عن طابع العلمية، وهي حقيقة أكدها سامسون في كتابه مدارس اللسانيات[110].

وعلى وجه الإجمال يمكن القول: إن ما يميز الوظيفيين ممن سبقهم من البنيويين لاسيما دو سوسور، وأتباعه عدم الفصل بين البنى اللغوية، ووظائفها، وعدم إمكان عزل اللغة عن نسيجها الاجتماعي، وإغفال الفرق بين اللغة والكلام، والتشديد على التفاعل بين النظام (أو البنية)، والسياق، وإعطاء الوظيفة أهمية أكبر من البنية نفسها، ورفض النسبية، والقول بالعموميات التي تنطبق على كل اللغات، وعدم الالتزام بالتفريق الحازم بين الدراسات التعاقبية، والتزامنية كما رسمه دو سوسور.

4.2.3 ـ المدرسة التوليدية:

يقصد بالمدرسة التوليدية Generativism مجموعة النظريات اللسانية التي وضعها، وطورها اللساني الأمريكي المشهور ناعوم تشومسكي Noam Chomsky (المولود سنة 1928)، وأتباعه منذ أواخر الخمسينيات، وقد امتد تأثيرها ليشمل (إضافة إلى حقل اللسانيات) مجالات أخرى كالفلسفة، وعلم النفس، وتعتمد هذه المدرسة في مناهجها على استخدام ما يعرف بالقواعد التوليدية، ويبلغ تأثيرها في النظريات النحوية حدا يمكن معه القول بأن النحو التوليدي هو النحو السائد في الدراسات اللسانية إبان الأربعين سنة الأخيرة. وقد لا نبالغ إذا قلنا إن الاعتقاد السائد بين معظم اللسانيين في العقود الثلاثة الماضية هو أن جودة نظرية نحوية ما تقاس بمدى التزامها بالأصول التي ابتدعها التوليديون.

لقد شاع وصف سنة 1957 (وهي السنة التي نشر فيها كتاب البنى

---

(110) سامسون، 1996: 115.

النحوية Syntactic Structures لتشومسكي) بأنها نقطة تحول في لسانيات القرن العشرين، غير أنه من العدل أن نقول: إن بعض اللسانيين يرون أن سنة 1959 هي السنة الأكثر أهمية، وذلك عندما رفض تشومسكي - في مراجعة لاذعة - النهج السلوكي في استخدام اللغة بوصفه نتاجا غير مقبول للتجريبية الصارمة في المدرسة السلوكية البلومفيلدية. فقد تحدى تشومسكي الأساس الفلسفي لما عرف "بالقانون البلومفيلدي" Bloomfieldian canon. ومنذ 1957 كادت التطويرات اللسانية جميعها تكون نتيجة لإعادة النظر، أو للتعديلات في آراء تشومسكي ليس أقلها تغييراته الخاصة في نظريته اللسانية. وهكذا يمكن أن يعد النصف الثاني من القرن العشرين عصر النحو التوليدي التحويلي(111).

إن الفكرة الأساسية التي توجّه المنهج التوليدي هي سمة الإنتاجية في اللغة التي بمقتضاها يستطيع المتكلم أن يؤلف، ويفهم جملا جديدة غير متناهية لم يسبق له أن سمعها من قبل، وهي السمة التي تميز الإنسان من الآلات، والحيوانات. فإذا كان الأطفال قادرين على استخدام جمل جديدة يعدها الكبار سليمة في صوغها well-formed فذلك يعني أن هناك شيئا آخر يتجاوز مجرد محاكاة الجمل التي سمعوها من الكبار، وهو أنهم يولدون بقدرة لغوية تمكنهم من ذلك. فإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن ندرس تلك القدرة التي تمكن المتكلم من إحداث جمل جديدة، وفهمها، بدلا من أن نوجه اهتمامنا إلى جمع المادة اللغوية من أفواه المتكلمين؛ لأنه مهما توسعنا في جمع المادة اللغوية فإننا نعجز عن تغطية كل المادة التي نحتاجها، بل ربما حتى القدر الكافي منها.

وبقدر ما ننجح في اكتشاف القواعد التي يعتمد عليها المتكلمون في

---

(111) See Robins, 1997:260.

صوغ التراكيب فإننا نتمكن من تقديم تفسير مرض علميا لخصيصة الإنتاجية في اللغة[112].

3.2.4.1 ـ النحو التوليدي:

يطلق مصطلح النحو التوليدي generative grammar على "طائفة من القواعد التي تحدد أنواعا مختلفة من أنظمة اللغة"، وبعبارة اصطلاحية أدق هو "طائفة من القواعد التي تطبق على معجم محدود من الوحدات فتولد مجموعة (إما محدودة، أو غير محدودة) من الائتلافات (المكونة من عدد محدود من الوحدات) بحيث يمكن بهذه القواعد أن نصف كل ائتلاف بأنه سليم في صوغه well-formed في اللغة التي يصفها النحو"[113]. ولكي نوضح هذه النقطة أقول: إن ما يحدث عند صوغ الجملة رقم (1) هو أنه لدينا مجموعة من الوحدات اللغوية منها ما هو قواعدي مثل (ال) في (المثابرون)، وصيغة فَعَل في (فاز)، ومنها ما هو معجمي مثل (ث ب ر) التي تكون المعنى المعجمي لكلمة (المثابرون)، و(ف و ز) المكونة للمعنى المعجمي لكلمة (فاز). ونظرا إلى كوننا قادرين على صوغ جمل عربية بحكم معرفتنا بقواعدها، فقد طبقنا مجموعة من القواعد الصياتية، والصرفية، والنحوية لتوليد الجملة (1).

(1) فاز المثابرون.

ومن القواعد الصياتية، والصرفية التي طبقناها على هذه الجملة:

1 ـ أن وضع الوحدة المعجمية (ف و ز) في صيغة فَعَلَ للدلالة على أن الفعل حدث في الزمن الماضي يتطلب أن تحذف الواو؛ لأنها وقعت بين فتحتين (فَ وَ زَ)، ثم توالت الفتحتان بدون فاصل بينهما، فكوّنتا الألف.

(112) 1 Lyons, 1981: 231.

(113) Lyons, 1981: 124-5.

2 ـ أن وضع الوحدة المعجمية (ث ب ر) في صيغة فاعِل للدلالة على من وقع منه الفعل لم يترتب عليه إبدال صياتي.

3 ـ أن تعريف الفاعل (بدلا من تنكيره) ترتب عليه إلصاق السابقة (ال) في بداية كلمة (المثابرون) دون وضعها في أي مكان آخر، وعدم إدغام اللام في الميم التي تليها؛ لأن (ال) هنا شمسية، وليست قمرية.

ومن القواعد الصرفية النحوية التي طبقت لتوليد هذه الجملة عدم إلحاق ضمير الجماعة بالفعل فاز في مثل هذا التركيب، وضرورة استخدام اللاحقة (ون) للدلالة على الجمع، والفاعلية، وإثبات النون لعدم وجود مضاف إليه.

وبعد تطبيق هذه الطائفة من القواعد على هذا المعجم المحدود من الوحدات (وهو مجموع الوحدة المعجمية (ف و ز)، وصيغة الفعل (فعل)، و(ال)، والوحدة المعجمية (ث ب ر)، وصيغة فاعل، واللاحقة (ون)) تولدت مجموعة من الائتلافات منها مثلا (فاز)، و(مثابر)، و(المثابر)، و(المثابرون)، و(فاز المثابرون). ولكي نتأكد من سلامة صوغ كل ائتلاف من هذه الائتلافات، ونسمح لأنفسنا بالحكم بصحة ما قلناه فعلينا أن نعود إلى القواعد الصياتية، والصرفية، والنحوية المذكورة سابقا، وهي قواعد تنتمي إلى النحو العربي لأننا نصف جملة من جمل العربية.

يتولى النحو التوليدي أيضا تخصيص وصف بنيوي **structural discription** مناسب لكل ائتلاف من هذه الائتلافات، وكل اختلاف في بنية الائتلاف المدروس ينبغي أن يظهر على شكل اختلاف في الوصف البنيوي المرتبط بتلك البنية.

ومن المهم أن ننبه هنا على أن التوليديين لا يصفون جملا مدونة من المادة اللغوية التي استخدمها المتكلمون بالفعل، بل يصوغون جملا مفترضة باتباع منهج التوليد، ثم ينظرون في واقع اللغة (بالرجوع إلى حدس اللغوي عادة)، ويتساءلون عما إذا كانت الجملة المولدة بمنهج رياضي مطابقة لقواعد

اللغة بالفعل؛ أي هل كان صوغها سليما؟، ومن هنا يأتي مصطلح السلامة اللغوية well-formedness. وهكذا فإنهم يعاملون اللغة الطبيعية معاملة اللغات الصورية formal languages المخترعة، وهو أمر لا يوافق عليه كثير من اللسانيين(114).

وقد ترتب على هذا المنهج التجريدي في دراسة اللغة استخدام مصطلحات مثل المتحدث المثالي ideal speaker/hearer الذي ليس له وجود في الواقع اللغوي، بل يفترضه اللساني اعتمادا على حدسه intuition، وكفايته اللغوية linguistic competence أي معرفته بقواعد لغته، ومعجمها.

وفي البداية سمي النحو التحويلي التوليدي transformational-generative grammar قواعد التحويلات (T-rules) لتحديد الجمل الأكثر قبولا من الناحية القواعدية في لغة ما. وفي كتاب تشومسكي "البنى النحوية" أخذ النحو شكلين: التحويلات الإجبارية مثل الإلصاق affix hopping الذي يولد به المبنى السليم للجملة؛ والتحويلات الاختيارية لتحويل جمل مثبتة مثلا إلى جمل منفية، أو استفهامية.

وفي العقود الأربعة اللاحقة بدأ تطوير دور التحويلات بإقحام فكرة البنية العميقة، الأمر الذي أدى تدريجيا إلى شيوع مصطلح النحو التوليدي بدلا من النحو التحويلي إلى أن اختفى المصطلح الثاني، وصارت النظرية التشومسكية تعرف باللسانيات التوليدية(115).

2.4.2.3 ـ افتراض بنية عميقة:

درج النحاة التوليديون على افتراض بنى عميقة deep structures للائتلافات اللغوية يحكمها منطق اللغة الذي يفترضون أن كل متكلمي اللغة يرثونه من آبائهم، ففي كل لغة يمكن افتراض بنية تعبر عن وقوع فعل ما من

---

(114) Lyons, 1981: 125-6.

(115) See Robins, 1997: 261.

فاعل ما يقع على مفعول به، ومن الممكن منطقيا أن يعبر عن هذه الفكرة المنطقية بمناويل لغوية مختلفة؛ إذ يمكن للمتكلمين تجسيد هذه الفكرة المنطقية في صورة (فاعل ـ فعل ـ مفعول به)، أو (فاعل ـ مفعول به ـ فعل)، أو (فعل ـ فاعل ـ مفعول به)، أو (فعل ـ مفعول به ـ فاعل)، أو (مفعول به ـ فعل ـ فاعل)، أو (مفعول به ـ فاعل ـ فعل)، غير أن هذه الاحتمالات الممكنة منطقيا ليست موجودة كلها في واقع اللغات، بل كل لغة تضع قيودا تمنع وقوع بعض (أو ربما أغلب) هذه الاحتمالات. وبذلك فإن النحاة التوليديين ينطلقون من منطلق أن الأصل في تكوين الائتلافات اللغوية الإباحة ما لم تمنعه قواعد اللغة. فإذا حاولنا أن نعبر عن الفكرة المنطقية السابقة باللغة العربية فسنجد أنه من الممكن أن نقول:

(1) خالد ضرب سعيدا	ممكن
(2) *خالد سعيدا ضرب[116]	غير ممكن
(3) ضرب خالد سعيدا	ممكن
(4) ضرب سعيدا خالد	ممكن
(5) سعيدا ضرب خالد	ممكن
(6) سعيدا خالد ضرب	ممكن

وما نلاحظه عن الجمل السابقة أن اختيار خالد ليكون الفاعل المنطقي، وسعيد ليكون المفعول به أتاح أكبر احتمالات ممكنة، فإذا غيرنا ذلك إلى عيسى (ليكون الفاعل المنطقي)، وموسى (ليكون المفعول به) فالاحتمالات ستقل.

(1) عيسى ضرب موسى	ممكن
(2) *عيسى موسى ضرب	غير ممكن

(116) النجيمة تشير إلى أن الجملة غير سليمة الصوغ ill-formed.

(7) ضرب عيسى موسى ممكن

(8) *ضرب موسى عيسى غير ممكن

(9) *موسى ضرب عيسى غير ممكن

(10) *موسى عيسى ضرب غير ممكن

ومن المهم هنا أن ندرك أن عملية التوليد، وتقليب الاحتمالات لا تمثّل ما يقوم به المتحدث عندما يتكلم، بل هي عملية رياضية دقيقة يقوم بها اللساني عند ممارسته النحو التوليدي.

3.4.2.3 ـ اختلاف البنية العميقة عن البنية السطحية:

عندما ننظر في كثير من الجمل تبدو لنا مختلفة، ولكن إذا نظرنا في بناها العميقة نجد أنها واحدة. ولعل الصورة المثلى في كل اللغات أن تتفق بناها العميقة مع بناها السطحية، ولكن هذا لا يكاد يحدث في الواقع اللغوي. تأمل الأمثلة الآتية:

(1) أفضل ثوب الحرير.

(2) أفضل كتاب الأستاذ.

(3) أفضل نوم الليل.

(4) البيت سُرق.

(5) البيت اشتريته.

(6) البيت نمت فيه.

(7) البيت بعت أثاثه.

(8) قام زيد.

(9) مات زيد.

عند التأمل في الأمثلة (1)، و(2)، و(3) نلاحظ أنها مشتركة في بنياتها النحوية الخارجية لكونها جميعا تتألف من فعل، وفاعل، ومفعول به،

ومضاف إليه. ولكن عندما نوازن بين علاقة المضاف بالمضاف إليه في كل منها نجد أن المعنى مختلف. ففي المثال الأول نجد أن الإضافة بمعنى من؛ أي إن المقصود الثوب الذي من حرير، وفي المثال الثاني نجد أن الإضافة بمعنى اللام، فيكون المراد حينئذ: الكتاب الذي للأستاذ، وفي المثال الثالث تفسر بكونها بمعنى في، ويكون المقصود ـ بناء على ذلك، النوم الذي في الليل.

أما في المجموعة الثانية، وهي الجمل من (4) إلى (7) فإن كلمة البيت تعرب مبتدأ، ولكنها محولة في الواقع من بنى عميقة تظهر عند إرجاعها إلى مواقعها الأصلية:

4 ـ سرق البيت.

5 ـ اشتريت البيت.

6 ـ نمت في البيت.

7 ـ بعت أثاث البيت.

وأما المثالان (8)، و(9) فيظهران كيف أن اتفاق الشكل الخارجي المتمثل في وقوع كلمة (زيد) فاعلا فيهما لا يعني أن بنيتها العميقة واحدة؛ لأن معنى الأول فعل زيد القيام في حين أن الثاني يعني حل الموت بزيد.

وكما تتفق البنى السطحية مع اختلاف البنى العميقة قد تتفق البنى العميقة، وتختلف البنى السطحية كما في المثالين الآتيين:

(10) لست بناجح.

(11) لست ناجحا[117].

(117) للتوسع في هذه الأمثلة، وما يشبهها، انظر دراستي السابقة: يونس علي، 1993): 280 ـ 83.

3.2.4.4 ـ البنية المكوِّنة:

سوف نمهد للتحليل التوليدي للنحو، وأنواع القواعد المستخدمة فيه بشرح موجز لفكرة البنية المكونة constituent-structure السائدة في أصول التوزيعيين distributionalists التي شاعت في منهج ما بعد اللسانيات البلومفيلدية post-Bloomfieldian linguistics. وعلى الرغم من أن فكرة البنية المكونة هي فكرة من أفكار التوزيعيين بيد أن الفرق الجوهري بين التوزيعيين، والتوليديين "أن التوزيعيين تعاملوا مع "نحو المسارد grammar of lists" الذي يعنى بتحديد الوحدات اللغوية، وتصنيفها، أما تشومسكي فقد عني بـ "نحو القواعد grammar of rules" المعني بترتيب تلك القواعد ترتيبا منهجيا sysematically لكي يمكن (من الناحية المثالية، وليس الواقعية) توليد ما هو مقبول فقط من كل الجمل في لغة ما"[118].

وينبغي أن نذكر هنا أن علم القواعد grammar قسم في فترة ما بعد اللسانيات البلومفيلدية إلى صرف morphology يُعنى بالبنية الداخلية لمباني الكلمة، ونحو syntax يتناول توزيع مباني الكلمة على الجمل السليمة الصياغة في لغة ما، ولكنهم عدلوا عن ذلك في أغلب الأحوال فتخلوا عن التمييز بين المجالين، وترتب على ذلك توسيع تعريف النحو ليشمل النحو، والصرف معا، وهكذا أصبح النحو يدرس توزيع المصرّفات، وبدأ ينظر إلى مباني الكلمات لا على أنها وحدات دلالية، بل بوصفها وحدات قد تؤدي وظيفة قولات صغرى، وبوصفها ـ في بعض اللغات ـ مجالا لبعض السمات الصياتية فوق المقطعية، وهذا هو المفهوم الذي تبنته القواعد التوليدية التشومسكية باعتبارها جزءا من إرث ما بعد اللسانيات البلومفيلدية[119].

تتألف كلمة مثل unfriendliness (انعدام الصداقة) وفقا لتحليل البنية

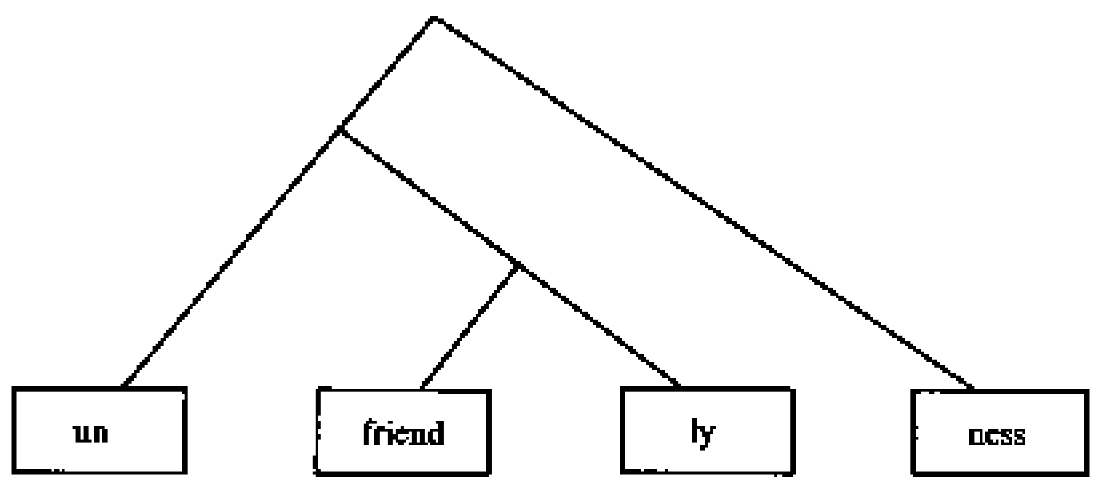
(118) See Robins: 1997: 264.

(119) Lyons, 1981: 118.

المكونة من أربعة مصرّفات هي .un-friend-ly-ness ويمكن تمثيل بنية هذه الكلمة الهرمية hierarchical structure في أحد شكلين: التقويس bracketing؛ أي الفصل بين أجزائها بأقواس معكوفة (كما في الشكل (1))، والتشجير؛ أي وضعها في شكل شجرة tree-diagram (كما في الشكل (2))[120].

[[un-[friend-ly]]-ness]

الشكل (1)



الشكل (2)

ومن الجوانب التي يهتم بها التوزيعيون، والتوليديون هو تصنيف العناصر اللغوية التي تفرع، أو تشجر في الأشكال السابقة، ويرتبون على ذلك بعض القواعد. فكلمة unfriendliness تصنف بأنها اسم مجرد، ويرمز لها برمز معين، وليكن مثلا (س م). ويصاغ الكثير من هذه الأسماء في الإنجليزية بإضافة اللاحقة ness على الصفات adjectives. وكذلك، فإن إلصاق un بصيغة الصفة (ص) هي عملية صرفية منتجة في الإنجليزية. أما إلصاق un بصيغ الأسماء فليست عملية منتجة.

وتصاغ هذه القواعد في شكل رموز كأن نستعمل الرمز (مق) لتلك الطائفة من المباني (مثل unfriendliness) الناشئة عن إلصاق ly بالصفات المصاغة من الأسماء (مثل unfriend) التي يمكن أن نرمز لها ب (سص)،

(120) Lyons, 1981: 119.

وبذلك يمكن أن نعبر عما قيل سابقا بالقاعدة رقم (1) الآتية:

(1) سص + ly ← مق

أي إن زيادة ly على الصفات المصاغة من الأسماء ينتج عنه صيغة من النوع unfriendly. وتفيدنا هذه القاعدة أن كل الكلمات من النوع (سص) يمكن استبدال بعضها ببعض على الأقل في السياقات التي تعبر عنها القاعدة رقم (1). وتستلزم هذه القاعدة أن كل الكلمات من النوع (مق) يمكن استبدال بعضها ببعض في السياقات التي تعبر عنها قواعد أخرى مثل

(2) مق + ness ← س م

أي إن إلحاق ness بصيغة من نوع unfriendly ينشأ عنه اسم مجرد مثل unfriendliness.

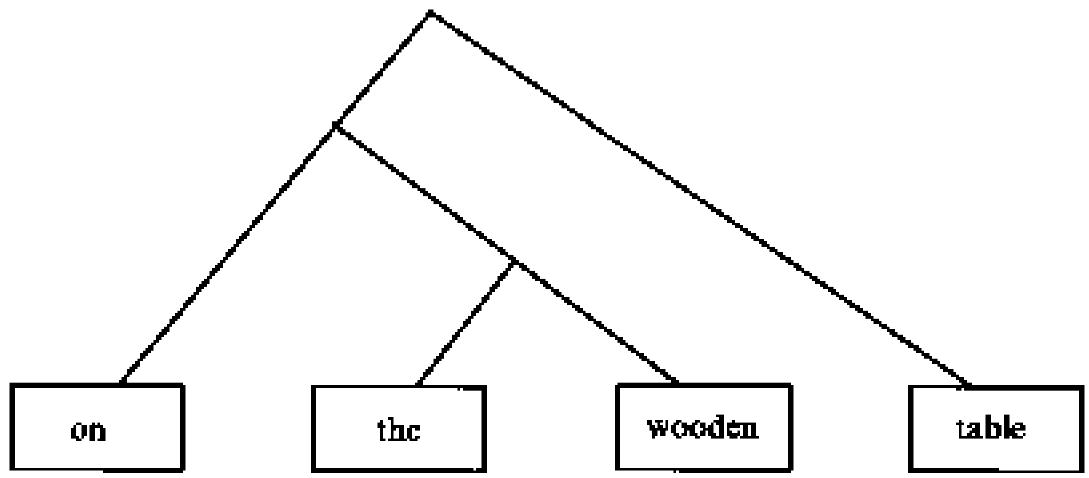
(3) un+ مق . . . ← مق

أي أن إلحاق un بصيغة من نوع unfriendly ينشأ عنه صيغة أخرى من نوع unfriendly، وهي ununfriendly[121].

وكما تطبق فكرة البنية المكونة على المستوى الصرفي تطبق أيضا على المستوى النحوي أي على مستوى العلاقة بين الكلمات. ففي التركيب الإنجليزي on the wooden table الذي يسمى بتركيب الجار والمجرور prepositional phrase نجد أنه يتكون من حرف الجر (on)، والتركيب الاسمي noun phrase (the wooden table) الذي يتألف من أداة التعريف (the)، والتركيب (wooden table) المكون من الصفة (wooden)، والاسم (table).

(121) Lyons, 1981: 119-20.

[on[the[wooden table]]]
الشكل (3)



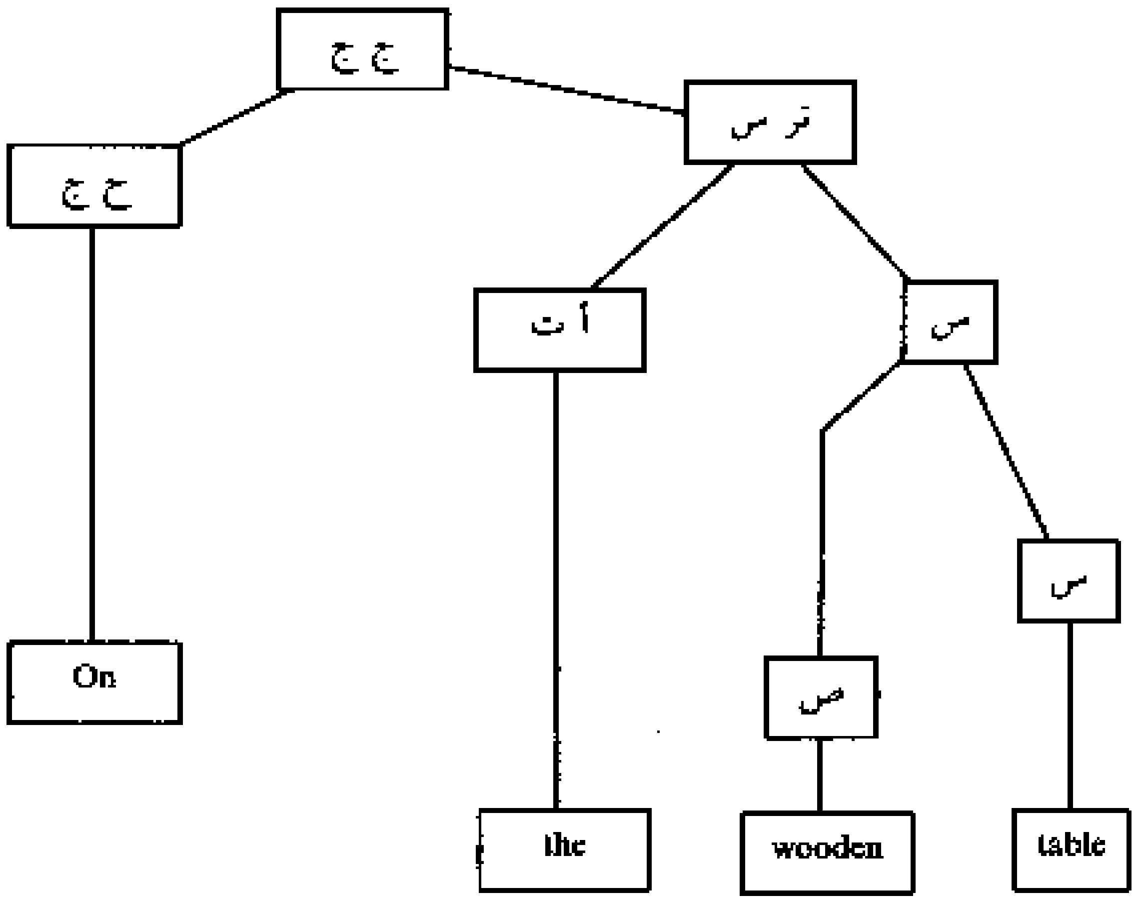
الشكل (4)

والخطوة التالية هي تحويل التقويس السابق، والمشجر إلى رموز مختصرة بالتصنيف، أو الوسم lable. وسنختار الرمز (تر س) للتركيب الاسمي، و (ح ج) لحرف الجر، و (ج م) لتركيب الجار والمجرور، و(ص) للصفة، و (أ ت) لأداة التعريف[122].

(122) Lyons, 1981: 121-2.

[ج م[ح ج on][أت the] [س [ص wooden] [س table]]]]

الشكل (5)



الشكل (6)

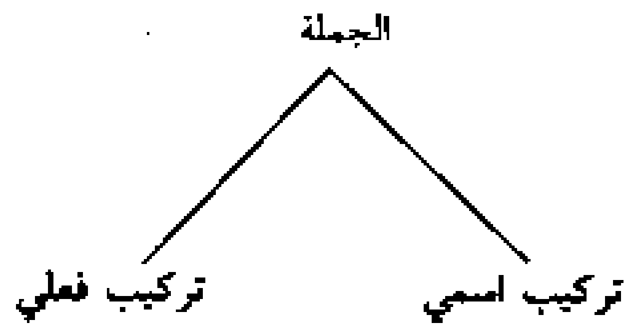
5.4.2.3 ـ أنواع القواعد في النحو التوليدي:

من القواعد التي قدمها التشومسكيون، واشتهرت بينهم ثلاثة أنواع:

1 ـ قواعد المراحل المحدودة finite-state grammars، وهي قواعد قادرة على توليد عدد غير متناه من الجمل تنتج عن تكرار تطبيق عدد متناه من قواعد نحوية متناهية العدد، وهذه القواعد أضعف من النوع الثاني.

2 ـ قواعد بنية التركيب phrase structure grammars، وهي القواعد التي تسمح لنا بتوليد عدد كبير من الجمل بتطبيق عدد قليل من القواعد، ويستخدم فيها نوع آخر من الأشكال التوضيحية عوضا عن المشجرات، فبدلا من المشجر الآتي يستخدم الشكل الذي يليه، ويقرأ في العربية ـ

خلافا للإنجليزية ـ من اليمين إلى اليسار.



الجملة ← تركيب اسمي تركيب فعلي

وتقرأ هذه القاعدة كالآتي: تتألف هذه الجملة من تركيب اسمي، وتركيب فعلي.

ويصاحب هذه القواعد النحوية قواعد معجمية تترجم فيها التصنيفات النحوية إلى كلمات تنطبق عليها تلك الأصناف النحوية:

اسم[123] ← {رجل، امرأة، أسد، باب، شجاعة}....

ويمكن لنا أن نضع طائفة سهلة من قواعد بنية التركيب التي يمكن أن تستخدم لتوليد عدد كبير من الجمل:

من قواعد بنية التركيب

الجملة ← تركيب اسمي تركيب فعلي

تركيب اسمي ← أداة تعريف اسم (صفة) اسم علم

تركيب فعلي ← فعل تركيب اسمي (تركيب جار، ومجرور) (صفة)

تركيب جار ومجرور ← حرف جر تركيب اسمي

---

(123) السهم يعني يتألف من.

من القواعد المعجمية

اسم ← {ولد، بنت، منظار، كلب،...}

اسم علم ← {علي، فاطمة}...

أداة التعريف ← {ال}

الصفة ← {صغير، غريب}...

الفعل ← {رأى، تبع، ساعد}...

حرف الجر ← {ب، عن}...

الظرف ← {أمس، مؤخرا}...

ونستطيع بهذه القواعد أن نولد الجمل من (1) إلى (7)، ولكننا لا نستطيع أن نوضح بها الجمل غير السليمة في بناتها القواعدي.

(1) البنت تبعت الولد.

(2) الولد ساعد الكلب.

(3) الكلب رأى بنتا.

(4) فاطمة ساعدت عليا مؤخرا.

(5) علي رأى كلبا أمس.

(6) كلب صغير تبع فاطمة.

(7) الولد الصغير رأى عليا بمنظار غريب مؤخرا.

(8) *ولد الفاطمة رأى.

(9) *ساعد بنتا.

(10) *طفل صغير بمنظار.

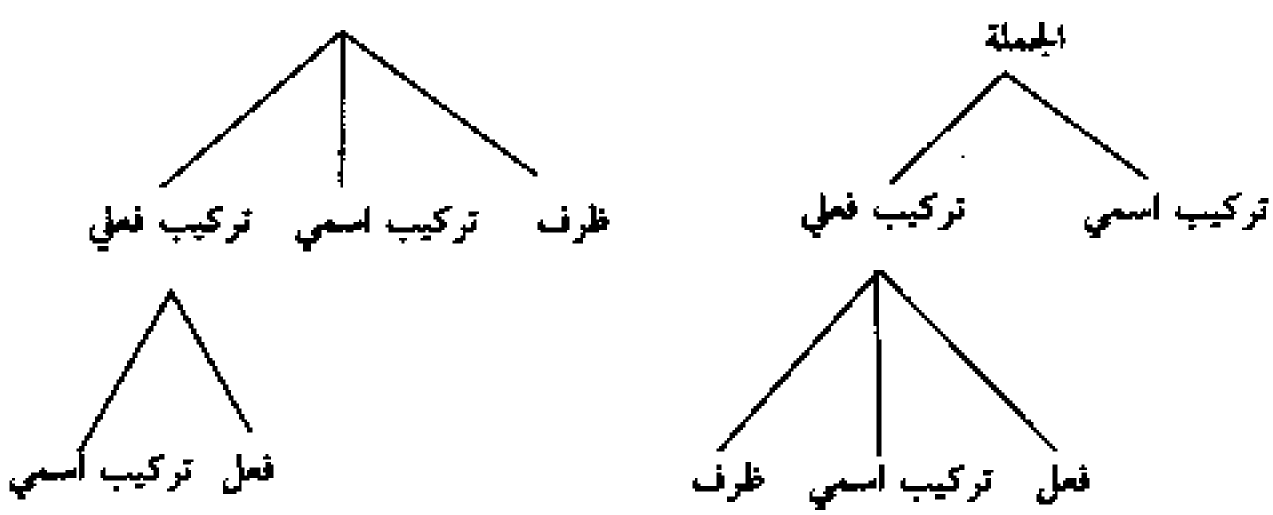
لا تنحصر قواعد بنية التركيب في هذه البنى البسيطة بل قد تتعقد الجمل بإقحام ما يعرف بالإعادة recursion حيث تعاد بعض العناصر اللغوية لتطويل الجملة، وتعقيدها، ومن أمثلته إدخال الفعل (ظن) على جملة (خالد ساعد سعيدا) بحيث تصبح (ظن أحمد أن خالدا ساعد

سعيدا)، ويمكن أن نطيلها أكثر فنقول: (يوسف قال: ظن أحمد أن خالدا ساعد سعيدا)، وهكذا[124].

3 ـ القواعد التحويلية transformational grammar: مع تطور النحو التوليدي لاحظ اللسانيون الحاجة إلى معالجة العناصر اللغوية المنقولة عن مواقعها، فابتدعوا مجموعة من القواعد التحويلية لتوضيح التغيير، والنقل الذي يحدث في البنى المستمدة من قواعد بنية التركيب، وبيان علاقة الجمل بعضها ببعض، لاسيما العلاقة بين الجمل المبنية للمعلوم، والجمل المبنية للمجهول، وكذلك الجمل الخبرية، والجمل الاستفهامية. وكل ما يقوم به النحاة في معالجة مثل هذه الحالات هو نقل فرع من الشجرة في الشكل المشجر، وإلحاقه بجزء مختلف. انظر المشجرين الآتيين المرسومين لتوضيح كيف انتقل تقدم الظرف (أمس) عن موقعه السابق في الجملتين الآتيتين[125]:

(1) علي ساعد فاطمة أمس.

(2) أمس، علي ساعد فاطمة.



(124) Yule, 1996: 106-7.

(125) See Yule, 1996: 106-7.

وإضافة إلى الأنواع الثلاثة السابقة قدم النحاة التوليديون نظريات أخرى في الثمانينيات منها القواعد الوظيفية المعجمية lexical functional grammar، وقواعد بنية التركيب المعممة generalized phrase structure grammar. وتتميز هاتان النظريتان الأخيرتان بالتخلص من القواعد التحويلية، واعتماد الأولى منهما على الخصائص المعجمية، والثانية على الخصائص المنطقية لشرح العلاقات بين أنواع الجمل المختلفة. وعدلت نظرية قواعد بنية التركيب المعممة عن اعتقاد تشومسكي السابق باستقلالية النحو عن المعنى، وحاولت اكتشاف الارتباط بين مباني الجمل، ومعانيها في حين أيدت نظرية القواعد الوظيفية المعجمية فكرة الحقيقة النفسية التي قال بها تشومسكي، وهي الفكرة التي ترى أن النظرية النحوية لا تكون صحيحة إلا إذا وصفت نظام اللغة الذي يملكه المتكلم في ذهنه (وليس ذلك المستخلص من المادة اللغوية المجموعة)[126].

5.2.3 ـ المدرسة التخاطبية:

تعد الدراسات التخاطبية امتدادا، واستكمالا لجهود المدرسة الوظيفية، وتأتي هذه الدراسات نتيجة طبيعية لشعور المهتمين بها بإخفاق النموذج التقليدي للتخاطب traditional model of communication في تقديم تفسير ناجح لعملية التخاطب. ويمكن تلخيص أوجه الإخفاق فيه في كونه يتعامل مع التخاطب في عزلة عن السياقات الفعلية التي تستخدم فيها اللغة، ويصبغ عملية التخاطب بطابع مثالي تتجاهل فيه قضايا اللبس، والخروج عن المواضعات اللغوية، وقصر وظائف اللغة على عملية الإبلاغ[127]، وإهمال الأصول التخاطبية المفسرة لمقاصد المتكلمين.

(126) See McLeish, 1993:739-40.

(127) A. Akmajian, R. A. Demers and R. M. Harnish, Linguistics: An introduction to Language and Communication, 2nd edn. (Cambridge: The MIT Press, 1984) 392-8.

ولكي نوضح ذلك يحسن أن نشرح كيف عجز النموذج التقليدي للتخاطب الذي قصر اهتمامه على العناصر، والبنى اللغوية التي ينطقها المتكلم في استنباط (2) من القولة (1):

(1) أكل خالد بعض الخبز.

(2) لم يأكل خالد كل الخبز.

فليس ثمة عنصر لغوي في (1) يشير إلى (2)، كما أن كل البنى الصرفية، والنحوية، والمعجمية التي تضمنتها (1) لا تفسر استنباطنا المعتاد للمفهوم من (2). وكانت أول محاولة ناجحة في هذا الشأن ما قدمه فيلسوف اللغة الأمريكي Paul Grice Herbert (1913 ـ 1988) فيما سمي بمبادئ المحادثة .conversational maxims وبتطبيق هذه المبادئ، والتعديلات التي طرأت عليها أصبح بالإمكان أن نصل إلى كيفية استنباط (2) من (1). صاغ قرايس مبدأ التعاون the Co-operative Principle الذي يقتضي أن المتكلمين متعاونون في تسهيل عملية التخاطب، وهو يرى أن مبادئ المحادثة المتفرعة عن مبدأ التعاون هي التي تفسر كيف نستنتج المفاهيم الخطابية. ويمكن تلخيص تلك المبادئ في الآتي:

1 ـ مبدأ الكمّ :maxim of quantity

(أ) تكلّم على قدر الحاجة فقط (القدر الذي يضمن تحقيق الغرض من التخاطب).

(ب) لا تتجاوز بإفادتك القدر المطلوب.

2 ـ مبدأ الكيف :maxim of quality

(أ) لا تقل ما تعتقد كذبه.

(ب) لا تقل ما يعوزك فيه دليل بيّن.

3 ـ مبدأ الأسلوب maxim of manner

(أ) تجنب إبهام التعبير.

(ب) تجنب اللبس

(ت) أوجز كلامك (تجنب الإطناب الزائد).

(ث) ليكن كلامك مرتبا.

4 _ مبدأ المناسبة: maxim of relation

_ ليكن كلامك مناسبا لسياق الحال (be relevant)(128).

لقد طوّرت نظرية قرايس بفضل جهود باحثين في مجال علم التخاطب، ومن بينهم هارنيش Harnish الذي أضاف بعض التعديلات منها الجمع بين مبدئي الكم، والكيف(129)، وصادُك Sadock الذي أشار إلى إمكان تقليص بعض مبادئ قرايس، وأبرز بعض الثغرات في معيار الإبطال الذي صممه قرايس لاكتشاف المفاهيم الخطابية conversational implicatures المولّدة نتيجة انتهاك أحد مبادئ المحادثة المشار إليها سابقا. وتمكن صادُك من إضافة معايير أخرى لاختبار تلك المفاهيم(130)، غير أن أقوى التحديات جاءت من ويلسون Wilson، وسبيربر Sperber اللذان شككا في مبادئ قرايس، واستثنيا من ذلك مبدأ المناسبة الذي جعلا منه أساسا لنظرية سمياها بنظرية المناسبة theory of relevance(131). وبالعودة إلى المثال (1) يمكننا

(128) See H. P. Grice, "Logic and Conversation", in Steven Davis (ed.), Pragmatics: A Reader (New York: Oxford University Press, 1991) pp. 305-315, pp307-9. See also "Logic and Conversation", in Peter Cole and Jerry L. Morgan (eds.), Syntax and Semantics, 3: Speech acts (New York: Academic Press, 1975), pp. 41-68.

(129) See R. M. Harnish, "Logical Form and Implicature" ", in Steven Davis (ed.), Pragmatics: A Reader (New York: Oxford University Press, 1991) pp. 316-364.

(130) J. M. Sadock, "On Testing for Conversational Implicature", in Steven Davis (ed.), Pragmatics: A Reader (New York: Oxford University Press, 1991) pp.365-376.

(131) See D Wilson and Dan Sperber, "Inference and Implicature", in Steven Davis

معرفة الأساس الذي يستند إليه المتخاطبون في استنتاج (2) باللجوء إلى مبدأ الكم الذي بمقتضاه يفترض السامع أن قائل (1) ما كان ليستخدم صيغة أضعف (وهي كلمة "بعض") إذا كان متلقيه معنيا بالصيغة الأقوى (وهي كلمة "كل") التي كان بإمكان المتكلم أن يقولها بدلا مما قال. فالقاعدة إذن ـ كما يذكر جيفري ليتش أن "القضية الأضعف تستلزم أن المتكلم يعتقد بنفي القضية الأقوى". وهكذا فإن ذكر "بعض الخبيز" يستلزم نفي "كل الخبيز"[132].

لاشك أن مثل هذه المباحث فتحت مجالا جديدا واسعا في آفاق اللسانيات، وأسهمت في مد جسرٍ يصل بين البحث اللغوي المحض، والمنطق، فضلا عن كونها برهنت على أن عملية التخاطب لا تقتصر على المعطيات اللغوية؛ بل تتناول أيضا عناصر منطقية، وأخرى تخاطبية، وهو ما أعطى لهذا الحقل بعدا إبستمولوجيا جديدا يبدو فيه التشديد على تداخل المعارف، والعلوم المختلفة، والعلاقة التكاملية بينها. وقد سبق لعلماء أصول الفقه الإسلامي أن أدركوا هذه الحقيقة، وجعلوا منها مزيّة رجحت كفّتهم على كفة النحاة الذين قصروا اهتماماتهم على دراسة البنى اللغوية، وأهملوا الجوانب التخاطبية، والعمليات الاستنتاجية الملازمة لعملية الخطاب. ويبدو شعور تفوّق الأصوليين واضحا عند محمد بخيت المطيعي في قوله إن علماء الأصول "نحاة، وزيادة"[133]، كما صرح عبد العلي الأنصاري قبله بتفوّق علماء أصول الفقه على أهل العربية[134].

(ed.), Pragmatics: A Reader (New York: Oxford University Press, 1991) pp.377-393. See also, Dan Sperber and Deirdre Wilson, Relevance: Communication and Cognition (Oxford: Blackwell, 1986).

(132) Leech, 1983: 85.

(133) المطيعي، محمد بخيت، سلم الوصول لشرح نهاية السول (بيروت: عالم الكتب، د ـ ت) 2: 350.

(134) الأنصاري، عبد العلي، فواتح الرحموت بشرح مسلّم الثبوت، ط2 (قُم، إيران: دار الذخائر، 1368هـ) 1: 315، وانظر 1: 251.

تفترض البراغماتية pragmatics[135] وجود توقعات بين المتخاطبين، وأصول خطابية تحكم سلوكهم، واستنتاجاتهم، ومن الواضح جدا أنها تعنى بالأداء، وليس بالكفاية خلافا للتوليديين. وقد عرف عن البراغماتيين تشكيكهم في فكرة قصر اللسانيات على دراسة الكفاية اللغوية بعيدا عن الاستخدام، والسياق، وفي ما يتطلبه ذلك من قدر عال من التجريد، والأمثلة[136].

لقد جاءت البراغماتية بعد مراحل من الدراسات الصورية، أو البنائية formal للمعنى، التي عرف بها التوليديون على وجه الخصوص، ولعل روبين لاكوف Robin Lakof من أوائل التوليديين الذين شككوا في إمكان دراسة المعنى معزولا عن السياق، وتحمل شهادة أحد التوليديين المعروفين بإغراقهم في التجريد على إخفاق النهج الصوري البنائي في دراسة المعنى

(135) أفضل ترجمة مصطلح pragmatics بعلم التخاطب، وليس بالتداولية، أو النفعية، أو الذرائعية كما يفعل عدد من اللسانيين العرب توهما منهم بأن pragmatics، و pragmatism شيء واحد. والواقع أن المصطلح الأول يطلق على الدراسات التي تعنى بالمعنى في السياقات الفعلية للكلام، وهو ما يتفق مع معناها الحرفي، وهو "علم الاستعمال". وإذا نظرنا في تراثنا البلاغي، والأصولي فسنلحظ أن الاستعمال ـ الذي يقابل الوضع عادة ـ يطلق على النشاط الذي يقوم به المتكلم في عملية التخاطب؛ ولذا فإن ترجمة pragmatics بعلم التخاطب أنسب ـ في رأيي ـ من الخيارات التي اطلعت عليها حتى الآن. أما pragmatism فهي مدرسة فلسفية ظهرت في أمريكا تذهب إلى أن الفكرة النظرية لا تجدي نفعا ما لم تكن لها تطبيقات عملية. وعلى الرغم من وجود صلة منهجية بين المجالين (والمصطلحين) تكمن في التقليل من شأن المجرد، والعناية بما هو عملي، وسياقي، ومتحقق فعلا؛ فإن اهتمام الحقل المسمى بـ pragmatics يقتصر على اللغة خاصة، في حين يعنى الحقل الآخر بالفلسفة، وإن امتدت آثاره إلى السياسة، وعلم الاجتماع، وغيرهما. وللتوسع في هذا الموضوع انظر المصادر الآتية:

-Lyons, 1977: 119.

-Levinson, 1983) p. 1.

آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2003) ص 27 ـ 28.

(136) See Leech, 1983:3.

قيمة خاصة في البرهنة على أهمية السياق، والاستخدام في تقديم تفسير سليم لعملية التخاطب.

ومنذ السبعينيات توالت الانتقادات للدراسات التي تجعل من الجملة وحدة للتحليل اللغوي، وزاد عزوف مختلف الباحثين عن الدراسات التي لا تأخذ في حسبانها العناصر السياقية، والجوانب التخاطبية في دراسة اللغة. فاللسانيون الاجتماعيون بدأوا يرفضون فكرة المتحدث المثالي عند تشومسكي، وشبيه بهذا ما فعلته اللسانيات النصية، وتحليل الخطاب حين رفضتا قصر الدراسات اللسانية على ما يسمى بنحو الجملة sentence grammar[(137)]؛ متأثرين في ذلك ببعض الوظيفيين من أمثال فيرث، وهاليدي، وميتشال Mitchell الذي بلغت شهرتهم أوجها في الخمسينيات.

ولعل من أهم ما ينبغي أن يذكر في سياق الحديث عن البراغماتية الدور المهم، والمؤثر الذي قام به فلاسفة اللغة في تطوير هذا المجال. ومن الأعلام المهمين هنا ـ إضافة إلى بول قرايس المشار إليه سابقا ـ أوستين Austin، وسيرل Searle اللذان قدما للسانيات نظريتهما المعروفة بأفعال الكلام speech acts theory. تقوم هذه النظرية على فكرة أننا عندما نتحدث فإننا نقوم بأفعال، أو أحداث، ويبدو هذا واضحا فيما عرف بالقولات الإنشائية performative utterances التي يمكن أن نمثل لها بما يطلق عليه في كتب الفقه مصطلح "صيغ العقود" نحو "بعتك"، و"زوجتك"، وطلقتكِ"، ومنها أيضا "أعِدك"، و"أرجوك" "وأتمنى أن تفعل ذلك"، ونحوها مما يقترن فيه القول بعمل يصح أن نعده منجزا بمجرد انتهاء المتكلم من كلامه؛ كالطلاق، والبيع، والنكاح، والوعد، والرجاء، والتمني. وقد أضافت هذه النظرية تطورا إبستمولوجيا جديدا في اللسانيات ترتب عليه إعادة النظر في موضوعه من حقل يدرس الأقوال إلى مجال تدرس فيه الأقوال المقرونة

(137) See Leech, 1983:4.

بالأفعال، كما ترتب عليه إعادة النظر في طبيعة اللغة، واستخدامها.

لقد أتاحت الطبيعة الموسوعية للبراغماتية الفرصة لتعاون كبير بين المناطقة، والبراغماتيين (وكذلك علماء الدلالة) في سبيل تقديم نموذج متطور لعملية التخاطب يأخذ في حسبانه كل الأبعاد اللغوية، والمنطقية، والتخاطبية، وهو ما أدى إلى بروز أعمال تناقش موضوعات مشتركة[138] مثل أنواع الاستنتاج types of reference، والافتراضات presuppositions، والمفاهيم الخطابية conversational implicatures، والتعيين deixis.

وأخيرا علينا أن نذكّر بأن البراغماتية لا تقتصر على كونها فرعا من فروع اللسانيات النظرية، بل هي أيضا مدرسة متميزة في مناهجها البحثية، وفي موضوعاتها، وفي أصولها. وربما كان من العوامل التي أدت إلى دراستها باعتبارها حقلا من حقول اللسانيات أكثر من الحديث عنها بوصفها مدرسة أن الحديث عنها باعتبارها مدرسة يقتضي صوغ الاسم الذي يشير إليها بإضافة اللاحقة ism (على منوال Structuralism، وFunctionalism، وGenerativism) يؤدي إلى التباسها بالمدرسة الفلسفية pragmatism (الذراتعية)، وقد سبق أن أشرنا إلى الفرق بينهما في أحد الهوامش.

وأخيرا فقد تبين لنا في هذه الدراسة أن الاتجاهات اللسانية لا ترسمها خلافات اللسانيين في القضايا اللغوية بقدر ما تحكمها أصول فلسفية ذات طبيعة أنطولوجية إبستمولوجية. ومن ذلك اختيار اللساني حدود نطاق علميّة اللسانيات، ونظرته إلى طبيعة العلم، وتحديده لنوع المادة اللغوية، والوسائل، والطرائق التي تجمع بها المادة، والمناهج التي تحلل بها، وتحديده القدر الكافي في دراسة الظاهرة اللغوية: أينبغي أن يقف اللساني عند الوصف، أم يتعداه ليغوص في أعماق التفسير؟ وإلى أي مدى يحق له

(138) See for example J. Allood and others, Logic in Linguistics (Cambridge: Cambridge University Press, 1977). See also L. T. F. Gamut, Logic, Language and Meaning (Chicago: the University of Chicago, 1991).

أن يتسع في تجريده لتوصيفاته، وتفسيراته؟ وما المحظورات التي ينبغي أن يتجنبها في عملية التجريد؟ أينبغي للساني أن يكتفي بالنمذجة typification في صوغه للعلم، أم له أن يبلغ حد الأمثلة idealization؟ وهل تستلزم الأمثلة خلق لغة جديدة مفترضة تغيب فيها خصائص اللغة الطبيعية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي يترتب عليه؟ ثم ما هو العنصر المهم في اللغة؟ أهو نظامها المجرد؟، أم عملية الاستعمال؟، أم نتاج عملية الاستعمال المسماة بالكلام، أم تاريخ اللغة، أم بناها القواعدية، والمعجمية؟، أم وظائفها؟ أينبغي للساني أن يدرس الجمل اللغوية، أم القولات الكلامية، والنصوص الفعلية، أم المعرفة اللغوية الكامنة في أذهان المتكلمين؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة، ونحوها، وظهور عوامل تاريخية معينة هي التي رسمت أهم ملامح المدارس اللسانية في القرن العشرين، وقد أدى اختلاف الإجابات عنها إلى وجود ما لا يقل عن خمس مدارس متميزة أصوليا، هي:

1 ـ المدرسة التاريخية: وقد عرفت بتعويلها على العوامل التاريخية في تفسير الظاهرة اللغوية تأثرا بنظرية النشوء والارتقاء التي كانت سائدة في ذلك الوقت؛

2 ـ المدرسة البنيوية التي دعت إلى فصل البنية عن كل الظروف التاريخية، والاجتماعية التي تحيط بها، والاقتصار على تفعيل دور العلاقات الداخلية بين أجزائها؛

3 ـ المدرسة التوليدية التي نادت بالعناية بالأسس العميقة المفسرة للسلوك الخارجي، ووجهت اهتمامها إلى العمليات الذهنية القادرة على إنتاج عدد غير محدود من الجمل بدلا من التركيز على ما قيل بالفعل؛

4 ـ المدرسة الوظيفية التي ترى أن البنى اللغوية محكومة بوظائف اللغة التي لا تتحقق إلا في سياقات الكلام الفعلي؛

5 ـ المدرسة التخاطبية التي أخذت في حسبانها مختلف العوامل المنطقية،

والتخاطبية، والبنيوية في تفسير عملية التخاطب الناجح، وأدخلت كل عناصر التخاطب لاسيما السياق، والاستخدام في فهم، وتفسير مقاصد المتكلمين.

لقد سادت البنيوية في الدراسات اللسانية في القرن العشرين مثلما غلب المنهج التاريخي على البحث اللغوي في القرن التاسع عشر، ولعل القرن الواحد والعشرين سيشهد سيطرة الدراسات التخاطبية، وتحليل النص. وباستثناء المرحلة التي ظهرت فيها المدرسة التوليدية يمكن القول إجمالا إن البحث اللساني يتجه نحو الواقعية التجريبية، والانتقال من العقلانية التجريدية إلى الوظيفية السياقية.

تمرينات

س1 ـ ما الفرق بين معالجة الوظيفيين والتوليديين للجملتين الآتيتين.؟

(أ) القط أكل الفأر.

(ب) الفأر أكله القط.

س2 ـ ما الفرق بين التقريب الصوتي والاختزال الحذفي؟

س3 ـ كيف تفسر تزايد عدد الأفعال الضعيفة في اللغة الإنجليزية على حساب الأفعال القوية، وشيوع صوغ المؤنث من سمح على سمحاء في العربية؟ وما الفرق بين الظاهرتين؟

س4 ـ ماذا يمكن أن يفهم من قول أحد اللغويين: إن السحب لا تريد أن تبلغ الإرصادي شيئا؟

س5 ـ ما الفرق الجوهري بين اللغة الملكة واللغة المعيّنة حسب رأي دو سوسور؟

س6 ـ ماذا يفهم من قول دو سوسور "إن أخطاء مصطلحاتنا وكل طرائقنا في تمييز أمور اللغة المعينة إنما تصدر عن افتراض مقصود مضمونه أن هناك جوهرا في الظاهرة اللغوية"؟

س7 ـ ما وجه الشبه بين اللغة وألعاب الفك والتركيب؟

س8 ـ ما الذي يحدد الفرق بين اللون الأزرق في اللغتين العربية

واليابانية؟ وماذا يستنتج من اختلافهما؟

س9 ـ أكمل:

1) يحاول البنيويون الإجابة عن ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ في حين يحاول الوظيفيون والتوليديون الإجابة عن ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ .

2) عندما نتحدث فإننا في الواقع ننقل ـ ـ ـ ـ ـ ـ إلى كلام، والجملة إلى ـ ـ ـ ـ ـ ـ ، و ـ ـ ـ ـ ـ إلى قصد، ودلالات الألفاظ إلى ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ .

س10 ـ اختر أفضل إجابة لكل سؤال مما يأتي:

(أ) واحد فقط من الموضوعات الآتية لا يدخل في اهتمامات علم التخاطب:

1) المقاصد

2) الجمل

3) الاستعمال

4) السياق

5) المخاطب

(ب) واحدة فقط مما يلي لا تنتمي إلى الثنائيات التي قدمها دو سوسور:

اللغة والكلام

1) الدراسات التعاقبية والتزامنية

2) اللغة الملكة واللغة المعينة

3) المعنى المعجمي والمعنى القواعدي

4) الدال والمدلول

(ج) باستثناء المرحلة التي ظهرت فيها المدرسة التوليدية يمكن القول

إجمالا إن البحث اللساني يتجه نحو

1) العقلانية التجريدية

2) الدراسات التاريخية

3) الوظيفية السياقية

4) التحويلية

5) الحدسية

(د) يعود الخطأ الشائع في نحو الشريعة السمحاء إلى خطأ في

1) الاقتراض

2) القياس

3) الاختزال الحذفي

4) التقريب الصوتي

5) التخصيص

(هـ) يرى ابن تيمية أن أنصار المجاز لم يوفقوا في استخدام المنهج

1) الوصفي

2) التزامني

3) التاريخي

4) القياسي

5) التقابلي

(و) ـ من الاعتراضات التي وجهها تشومسكي إلى المدرسة السلوكية:

1) أن المتكلمين ينطقون بجمل جديدة لم يسبق أن سمعوها من قبل.

2) أن الاستبطان منهج ذاتي لا يمكن الاعتماد عليه.

3) أن عناية اللغوي ينبغي أن تتجه نحو المعرفة اللغوية وليس المادة اللغوية التي يستعملها المتكلمون.

4) كل ما سبق.

5) (1)+ (3)

س3 ـ انسب كل قضية من قضايا البحث اللغوي المذكورة في الجانب الأيمن من الجدول إلى فرع اللسانيات المناسب كما هو موضح بالمثال.

القضية	الفرع الذي يدرسها
التخطيط اللغوي	اللسانيات التطبيقية
دراسة لغة بعينها	
دراسة التنوعات الصوتية	
دراسة علاقة الألفاظ بالحقائق الخارجية	
دراسة السياق ودوره في فهم المقاصد	

س1 ـ ضع علامة صواب أو خطأ أمام كل عبارة من العبارات الآتية:

1) تعد المدرسة الوظيفية فرعا من البنيوية.

2) يقصد بالزيف التأثيلي الاحتجاج بالأصول التاريخية القديمة على عناصر اللغة الحالية.

3) تعزى صعوبة الترجمة إلى التقارب الشديد بين اللغات.

4) جعل تشومسكي تفسير المادة المدروسة غاية من غايات البحث اللساني.

5) انتكست أفكار دو سوسور بظهور علم الدلالة.

6) من العلوم اللغوية التي عرفت في التراث العربي والإسلامي علم الاستعمال.

7) يرى النحاة أن النص وليس الجملة هو الموضوع الذي يستحق التحليل.

8) يتعلم الطفل اللغة بحفظ كل ما يسمعه من المحيطين به.

المراجع العربية

1. الأنصاري، عبد العلي: فواتح الرحموت بشرح مسلّم الثبوت، ط2 (قُم، إيران: دار الذخائر، 1368هـ).

2. براون، ج ب، و ج يول: تحليل الخطاب، ترجمة محمد الزليطني، و منير التريكي (الرياض: جامعة الملك سعود، 1997).

3. الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الداية، ومحمد فايز الداية (دمشق: دار قتيبة، 1983).

4. روبول، آن، وجاك موشلار: التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2003)

5. سامسون، جفري: مدارس اللسانيات التسابق والتطور، ترجمة محمد زياد كبة (الرياض : جامعة الملك سعود، 1996).

6. ابن سينا: منطق المشرقيين (بيروت: دار الحداثة، 1982).

7. السيوطي، جلال الدين: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى، وعلي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار الجيل، (د ـ ت).

8. الشريف الجرجاني، أبو الحسن علي: التعريفات (تونس: الدار

التونسية للنشر، 1971).

9. الغزالي، أبو حامد: معيار العلم في فن المنطق (بيروت: دار الأندلس، ط4، 1983).

10. قدور، أحمد محمد: مبادئ اللسانيات (دمشق: دار الفكر، 1996).

11. القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط3، 1986).

12. المطيعي، محمد بخيت: سلم الوصول لشرح نهاية السول (بيروت: عالم الكتب، د ـ ت).

13. الموصلي، محمد: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية، والمعطلة لابن القيم الجوزية (مكة: المكتبة السلفية: دار الذخائر، 1349 هـ).

14. يونس علي، محمد محمد: وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية: دراسة حول المعنى ومعنى المعنى (طرابلس: منشورات جامعة الفاتح، 1993).

المراجع الأجنبية

1. Akmajian, A., R. A. Demers and R. M. Harnish, Linguistics: An introduction to Language and Communication, 2nd edn. (Cambridge: The MIT Press, 1984)
2. Allood, J. and others, Logic in Linguistics (Cambridge: Cambridge University Press, 1977).
3. Busmann, Hadumod, Routledge Dictionary of Language and Linguistics, translated and edited by Gregory Trauth and Kerstin Kazzazi (London: Routledge, 1996).
4. Chomsky, N., Aspects of the Theory of Syntax (Cambridge: The MIT Press, 1965).
5. Chomsky, N., Current Issues in Linguistic Theory (The Hague: Mouton, 1964).
6. Chomsky, N., Syntactic Structures (The Hague: Mouton, 1957).
7. Firth, J. R., Papers in Linguistics 1934-1951 (London: Oxford University Press, 1957).
8. Gamut, L. T. F., Logic, Language and Meaning (Chicago: the University of Chicago, 1991).
9. Gawron, J., M., and Stanley Peters, Anaphora and Quantification in Situation Semantics (Stanford: CSLI, 1990)
10. Grice, H. P., "Logic and Conversation", in Steven Davis (ed.), Pragmatics: A Reader (New York: Oxford University Press, 1991) pp. 305-315.
11. Grice, H. P., "Logic and Conversation", ", in Peter Cole and Jerry L. Morgan (eds.), Syntax and Semantics, 3: Speech acts (New York:

Academic Press, 1975), pp. 41-68.
12. Halliday, M. A. K.& R. Hasan, Cohesion In English (London: Longman, 1976).
13. Jones, D. The Phoneme its Nature and Use. Cambridge: Cambridge University Press, 1976).
14. Jespersen, O., Language. Its Nature, Development, and Origin.(London: Allen & Unwin, 1922).
15. Katz, Jerrold J, Language and Other Abstract Objects (Oxford: Basil Blackwell, 1981).
16. Katz, Jerrold J, Linguistic Philosophy: the Underlying Reality of Language and Its Philosophical Import (London: Allen and Unwin, 1972).
17. Leech, Geoffrey., Principles of Pragmatics (New York: Longman, 1983).
18. Levinson, S. C., Pragmatics (Cambridge: University Press, 1983).
19. Lyons, John, J., Firth's Theory of Meaning. In Bazell, C. E. et al. (Eds), In Memory of J. R. Firth, Longman 1970.
20. Lyons, John, Language and Linguistics: An Introduction, (Cambridge: Cambridge University Press1981).
21. Lyons, John, Linguistic Semantics: An Introduction (Cambridge: Cambridge University Press,1995).
22. Lyons, John, Semantics (Cambridge: Cambridge University Press, 1977).
23. Nunan, D., Introducing Discourse Analysis (London: Penguin English, 1993).
24. Robins, R.H., A Short History of Linguistics (London: Longman, 1997).
25. Robins, R.H., General Linguistics: An Introductory Survey, 2nd edn (London: Longman, 1978)
26. Nida, E., A., Morphology, 2nd edn (Michigan: The University of Michigan Press, 1962)
27. Runes, Dagobert D., Dictionary of Philosophy, 16th edn. (New York: Philosophical Library, n-d).
28. Sadock, J. M., "On Testing for Conversational Implicature", in Steven Davis (ed.), Pragmatics: A Reader (New York: Oxford University Press, 1991) pp.365-376.

29. Saussure, F.de, Cours de linguistic général (Paris: Payot, 1968).
30. Seuren, P. A. M., Western Linguistics: An Historical Introduction (Oxford: Blackwell Publishers Ltd, 1998).
31. Sperber, Dan and Deirdre Wilson, "irony and Use-Mention Distinction" in Steven Davis (ed), Pragmatics: A Reader (New York: Oxford University Press, 1991).
32. Sperber, Dan and Deirdre Wilson, Relevance: Communication and Cognition (Oxford: Blackwell, 1986).
33. Wilson, D. and Dan Sperber, "Inference and Implicature", in Steven Davis (ed.), Pragmatics: A Reader (New York: Oxford University Press, 1991) pp.377-393.
34. Wunderlich, Dieter., Foundations of Linguistics, Translated by Roger Lass (Cambridge: Cambridge University Press, 1979).
35. Yule, G., The Study of Language (Cambridge: Cambridge University Press, 1996).
36. Yunis Ali , Mohamed M., Medieval Islamic Pragmatics: Sunni Legal Theorists Models of Textual Communication (London: Curzon Press, 2000).

فهرس عام